محمد جبريل

صيد العصاري

رواية

تشكر دار البستاني للنشر والتوزيع

الأستاذين نوبار وهراتش سيمونيان

"دار نوبار للطباعة"

على جهودهما الخاصة في إخراج هذه الرواية

الكتاب : **صيد العصاري**

رواية

المؤلف : محمد جبريل

الناشر : **دار البستانى للنشر والتوزيع**

٢٩ شارع الفجالة ١١٢٧١ القاهرة

٤ شارع على توفيق شوشة - مدينة نصر - ١١٣٧١

هاتف: ٥٩٠٨٠٢٥ / ٥٩١٥٣١٥ فاكس: ٢٦٢٣٠٨٥

E-mail: boustany@boustanys.com

Web-site: www.boustanys.com

المطبعة : دار نوبار للطباعة

رقم الإيداع : ٢٠١٦٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي : 977-5383-59-5 I.S.B.N.

كتبت "الشاطئ الآخر" تنويعاً على لحن الوطن وكتبت "زمان الوصل" تنويعاً ثانياً، و"زوينة" تنويعاً ثالثاً .. هذه الرواية تنويع - لعله الأخير- على اللحن الذى يبحث عن إجابة السؤال:

ما الوطن؟

إهداء

إلى الطبيب الأرمني مردروس جاري القديم الذى ظل – منذ طفولتي – " حالة " تثير الذهن بالأسئلة والملاحظات

ـــ ١ ـــ

عزيزي الأديب الشاب صلاح بكر. لم تعد العبارة تجتذبني. لا أشعر وأنا أقرأها بما كان يملأ نفسي من الزهو. بدت الطريق بلا نهاية، أو مسدودة. يترك لي الرسالة الصغيرة في مظروف مغلق. عزيزي الأديب الشاب. يتبعها بعنوان التحقيق الذي يطلبه. قلت لقاءاتنا، أو اختفت تماماً. تصور ــ ربما ــ أن الخطوة الأولى تليها بقية الخطوات ..

لم يكن ذلك ما تطلعت إليه، ولا أحببته ..

ما معنى أن أكتب ما ينشر باسم غيري؟ ..

المصادفة ــ وحدها ــ هي التي نبهتني إلى خطأ ما أفعله. عزيزي الأديب الشاب صلاح بكر. أرجو أن تكتب دراسة في نحو ست صفحات عن مكاسب مصر من تحركات وزارة محمود فهمي النقراشي ..

حين ترك رسالة يتعجل فيها الدراسة، كنت قد أعددت المراجع، وراجعت ــ في مكتبة البلدية ــ صحف السنوات الفائتة. كتبت أسطراً قليلة، ثم مزقتها. كتبت ومزقت. بدت لي الكلمات باردة وبلا معنى. لم أجد في داخلي إلا الخواء. حركت القلم ــ بمعاناة الفراغ ــ في خطوط ودوائر وتقاطعات وتشابكات. ثم انشغلت ــ يائساً ــ بالقراءة. أتوقع، أتمنى، أن تستفزني ..

أزمعت أن يقتصر ما أفعله على القراءة والتأمل. لا أتردد على قهوة فاروق إلا لموعد، ولا أتردد على الندوات ..

قال لي فيصل مصيلحي:

ــ أنت ضد وزارة النقراشي، فكيف تؤيد خطواتها ؟!

أضاف بصراحة اعتدتها منه:

ــ فعل الكتابة بدون اقتناع أشبه باحتضان المومس لمن لا تعرفهم!

كان يعاني انفعالاً بتأثير خطبة الجمعة في أبو العباس. تحدث الإمام عن عمليات شتيرن والهاجاناه في فلسطين، وعن المذابح التي واجهها أهل صفد وطولكرم وطبرية والناصرة وبيسان وجبال نابلس ..

قلت:

ــ هذه مجرد صحافة .. دراسة صحفية لا شأن لها برأيي ..

أردفت في ابتسامة معتذرة:

ــ لا شأن لي بخلافات النقراشي مع القوى السياسية .. ما يهمني هو موقفه من قضية الجلاء ..

كل شئ ضبابي وغير واضح. يختلط الترقب والتصورات والأمل والرؤى والخوف ..

انتهت الحرب ..

أزيلت السواتر وقيود الإضاءة. رفعت الرقابة على الصحف والمطبوعات. أبيحت الاجتماعات العامة. منع اعتقال الأفراد. ألغيت الأحكام العرفية. حلت الحكومة المدنية بدلاً من الحاكم العسكري.

ما حدث بدا كالبسمة المصنوعة التي تخفي القلق والتوتر. غامت السماء بسحب متكاثفة، وأطلت نذر أخطار متوقعة. نشطت الحركات الطلابية والعمالية. تكونت التنظيمات المشتركة. ارتفع شعار "يحيا الطلبة مع العمال". تجددت المظاهرات في الإسكندرية والزقازيق والمنصورة. تكرر إغلاق جامعة القاهرة. اعتصم طلبة كلية العلوم بجامعة الإسكندرية. قتل بأيدي قوات البوليس في ميدان محطة الرمل ٢٨ متظاهراً، وأصيب ٤٢٤. توالت المظاهرات. تخرج من المدارس والجامعات، تجوب الشوارع والميادين، تعم المدن، تهتف بالشعار: الاستقلال التام أو الموت الزؤام. الأوامر صريحة بإطلاق النار في المليان. الاجتماعات ممنوعة. الاعتقالات دون أسباب. مصادرات الصحف تتوالى.

جلاء الإنجليز عن مصر قضية تشغل الجميع، القضية التي تشغلني، القضية التي يجب أن تشغلني. تبدو كل الموضوعات التي يقترحها عيسوي أبو الغيط شاحبة، أو تافهة ..

أعدت قراءة المراجع، وما نقلته عن الصحف ..

كتبت ما أقتنع به ..

ــ ثم ماذا ؟

قال فيصل:

— ضع ما كتبت فى مظروف، وابعث به إلى الجريدة أو المجلة التى تأمل أن توافق على نشره.

كانت مدرجات الجامعة أول رؤيتى لفيصل مصيلحي، وأول تعرفي إليه. محاضرات الدكتور محمد محمد حسين طرف خيط نلتقطه في مناقشات، مفرداتها دولة الخلافة والحروب الصليبية والأفغاني ومحمد عبده وطه حسين وسلامة موسى واجتهادات المستشرقين. نشاطه السياسي يقتصر على تأييد مواقف الإخوان المسلمين، والدعوة لها. تتشابك تسميات الإمبريالية والنازية والفاشية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية. تختلط التيارات السياسية، السرية والمعلنة: الإخوان المسلمون، التنظيمات اليسارية، الطليعة الوفدية، الأحرار الدستوريون، مصر الفتاة. ملصقات الشوارع والكتابة على الجدران تعكس اختلافات الرؤى: الله أكبر ولله الحمد .. الخبز والحرية .. مطلبنا القضاء على الفقر والجهل والمرض .. الاستقلال التام أو الموت الزؤام .. لا مفاوضات إلا بعد الجلاء .. نريد الخبز بدل السلاح .. الدين أفيون الشعوب .. عاشت وحدة وادى النيل .. تبرعوا لمشروع الحفاء .. يحيا الملك مع النحاس .. يا شباب ٤٦ كن كشباب ١٩ .. الله أكبر والمجد لمصر .. القرآن دستورنا والرسول زعيمنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا. جماعة الإخوان هى التعبير عن التيار الإسلامي، لا جمعيات إسلامية أخرى توازيها. يتحدث فيصل عن بدايات الجماعة فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨. كان البنا — يسبق اسمه صفة الأستاذ — متأثراً بوجود القوات الإنجليزية فى منطقة القناة. تتقلص ملامحه: الاستقلال واجهة براقة لواقع زائف. تتلكأ الكلمات فى فمه: استبدلنا السفير

بالمندوب السامي. يضيف: حتى الملك هتف المتظاهرون ضده للمرة الأولى. ثم وهو يغتصب ضحكة: بعد أن كان الملك الصالح، صار ملك النساء. يردد أسماء: حسن البنا ومحمد الغزالي وسيد سابق وصالح عشماوي.

رنوت إلى الدهشة فى عينيه، رد فعل لعرضه بأن أعمل فى الشركة. ترك أبوه له إدارتها من قبل أن يتخرج فى الكلية.

قلت:

— قد لا يكون لليسانس اللغة العربية قيمة فى حالتك. أنت صاحب الشركة ..

واغتصبت ابتسامة:

— الأمر معي يختلف ..

المكتب فى الطابق الثاني من بناية على تقاطع شارع التتويج وشارع سوق السمك القديم. يمضي الترام — وحركة الطريق — من اليمين — إلى بحري، ويتجه — فى الناحية المقابلة — إلى ميدان المنشية. تطل الواجهة على مساحة ما بين عمارتين فى طريق الكورنيش. تتسع باتساع زاوية الرؤية ليبين مصد الأمواج المفضي إلى خارج الميناء. الحجرة المجاورة للباب تؤدي هناء زكريا عمل السكرتارية، والاتصال بالعملاء. مكتب فيصل مصيلحي يتوسط الحجرة الملاصقة المطلة على البحر. خصص لى مكتباً صغيراً لصق الجدار.

ظل ترددي عليه. حجرة المكتب المواجهة للبراح تغري بالحوار. الأخذ والرد. ربما ساعدته فى كتابة رسالة، أو مذكرة، أو مناقشة دراسة جدوى. تحول أداء المعاونة إلى أداء عمل. يسر لى القبول بقاء صداقتنا على حالها. المناقشات، وتبادل القراءات، والتمشي على الكورنيش، وفض ما بالنفس. لم يعد الفرق بين ليسانس اللغة العربية والعمل فى تجارة الورق بالاتساع الذى تصورته. ضاقت المسافة بالوقوف على أرض الصداقة، ومحاولة تعويض غياب الفهم.

لم يسألني فيصل ــ ذات يوم ــ ماذا أقرأ أو أكتب، ولا حاول السؤال إذا كان ما أنشغل به يخصني، أم أنه عمل المكتب. يضع الخطوط العامة، يشرح تصوراته. يترك لي التصرف حسب ظروفي ..

ــ كيف يطمئن الناس إلى الحياة فى وطن محتل؟

لا أذكر أين استمعت إلى العبارة. ربما فى داخل الدائرة الجمركية، أو فى حوار بين سائرين على طريق الكورنيش، أو تحت مظلة موقف الأوتوبيس بالمنشية، أو أن الذى قالها واحد من المتعاملين مع المكتب. ما أذكره أن العبارة شاغلتني، شغلتني، فى الأيام التالية. انبثق السؤال ــ وأنا أكتب تحقيقاً عن التنظيمات النسائية عقب ثورة ١٩١٩ ــ لماذا لا أركز فى كتاباتي على القضية المصرية؟

اطمأننت إلى مشاعري، وأنا أتأمل الدراسة، يسبقها اسمي، منشورة فى الصفحة الثامنة بجريدة "البلاغ" .. لكن الجريدة نشرت لي مقالات أخرى تالية ..

تكررت رسائل عيسوي أبو الغيط، وتكرر إهمالي. أرجو أن تكتب عن حيرة الشباب بين الأحزاب والتنظيمات السياسية. تأثيرات الحرب العالمية الثانية على الأوضاع السياسية فى العالم. دور جامعة فاروق فى استعادة الإسكندرية ملامحها الثقافية. حوار مع عالم الأحياء المائية حامد جوهر. علماء الاجتماع يناقشون: كيف نقضي على الفقر والجهل والمرض؟. هل يعود الوفد إلى أداء دوره بعد حادثة ٤ فبراير والكتاب الأسود؟. هل تحقق الجامعة العربية فكرة التقارب بين دول المشرق العربي؟. أيهما أسبق فى التعبير عن عواطفه للآخر: الشاب أم الفتاة؟. متى تحصل المرأة على حقوقها السياسية؟

لم يطل توقعي لزيارته ..

رمقه فيصل مصيلحي بنظرة متوجسة. تأنقه الواضح بالبدلة الشاركسكين، الكحلية اللون، وياقة القميص المنشاة، والكرافتة التى انسجم لونها مع لون البذلة ..

بدا الحرج فى وقفة أبو الغيط المترددة على باب المكتب. دعوته إلى الدخول وأنا أترك موضعي وراء المكتب.

سرنا إلى نهاية الطرقة ..

ــ خاصمتني؟

بدا السؤال مفاجئاً، وغريباً:

ــ مستحيل!

ــ لا ترد على رسائلي ..

ــ أعتزم تنفيذ ما تطلبه، ثم تجرفني الظروف ..

ــ كتابة؟

ــ لكنها ليست ما تطلبه مني ..

وداخل صوتي انفعال:

ــ تشغلني قضايا أهم ..

ــ هل المكافأة قليلة؟

ــ أبداً ..

ــ لم ألزمك بكتابة شئ تأباه ..

ــ صحيح، لكن ما أكتبه فى الفترة القادمة سيقتصر على قضية الجلاء..

ــ إجازة قصيرة إذن؟

ــ ليتك تعتبرها كذلك ..

بدت لى الدعوة إلى جلاء الإنجليز هدفاً يستحق أن أركز كتاباتي عليه. إذا خرج الإنجليز لم يعد للملك، ولا لأحزاب الأقلية، ما يفرضون به أنفسهم على المصريين. يحكمون بقيادة الوفد، أو بالقيادات التى تبين سياستها فيما تنشره صحف المعارضة، وما يثار فى الاجتماعات العامة. كنت أشارك فى المظاهرات أردد شعارات الاستقلال، وفى حضور الاجتماعات السياسية، ومؤتمرات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، لكننى لم أكن على صلة بأى تنظيم، وليس بيني وبين من استمع إلى خطبهم، ولا هتافاتهم بالشعارات، صداقة ولا معرفة ..

ــ ٢ ــ

كتب على لافتة العيادة بخط كوفى: الدكتور جارو ڤارتان ــ طبيب ..راض باطنة وقلب. لم أره يعتذر عن أية حالة. حتى أمراض العيون ..الجلد والعظام، كان يشير بأدوية، يكتبها فى دفتر الروشتات. تخصصه .. أمراض القلب. حدثني عن ملاحظته بأن المرضى يقصدون طبيب ..راض الباطنة، يعالجهم، أو يحيلهم على الطبيب المتخصص ..

استروحت الطيبة فى ملامحه: البشرة البيضاء المشربة بالحمرة، الشعر الأبيض القليل، المهوش، فوق الرأس، العينين اللوزيتين الساجيتين تطلان ..ن وراء النظارة الطبية المستديرة، ذات الإطار الذهبي، ويعلوهما حاجبان ..اقط معظم ما فيهما من الشعر. أسفل الفم ذقن بيضاء مدببة، كأنها ندفة ..طن. تناثرت على ظهر يديه بقع بنية خمنت أنها بتأثير الشيخوخة. ارتدى ..الطو أبيض على چاكيت من الكتان، وقميص بلا ربطة عنق. يبدو ..مهلاً، بطيئاً، فى كلماته وإيماءاته ..

ترددت على العيادة لحساسية فى صدري. زاد السعال، وتواصل. ..يت أزمات حقيقية. أشار فيصل مصيلحي بأن أتردد على الدكتور ..ارو. قدّر أن أعوام عمره أتاحت له أكبر قدر من الممارسة.

لمح فى يدي كتاب محمد خطاب "المسحراتى". قال وهو يميل ..السماعة على صدري:

ـــ هل لك اهتمامات سياسية؟

قلت:

ـــ أنا أكتب فى السياسة ..

ـــ أين؟

ـــ فى الصحف.

وتنبهت إلى أن اسمي لم يذيّل شيئاً مما كتبته:

ـــ ليس فى جريدة محددة.

غادرت العيادة بروشتة دواء، وموعد استشارة، ودعوة إلى لقاءات تالية.

قبل أن يترك الدكتور باب العيادة مفتوحاً، ويجعل باب حجرة الكشف مواربا، كان عطية يستقبل المترددين. فى حوالى الخامسة والعشرين، أبرز ما يميزه عينان واسعتان، وبشرة أميل إلى السواد، بها آثار جدري قديم. يرتدي قميصاً وبنطلوناً، لا يغيرهما، وإن أضاف إليهما ـــ فى الشتاء ـــ بلوفر واسعاً على جسده الضئيل. لم يكن يؤدي عملاً محدداً، هو ممرض، وخادم، ويعد القهوة للطبيب وزواره، ويشتري الاحتياجات من شارع السودان، ويبيت فى داخل الشقة.

استغنى عنه العجوز لأسباب كتمها. أهمل سؤالي عن غياب الشاب. تمتم بكلمات غير واضحة، وسكت.

قلت وأنا أشير إلى القميص على صدري:

ـــ لم أتوقع تبدل الجو بعد الظهر ..

قال:

ـــ نحن فى سبتمبر .. لا مفاجأة فى الحر أو البرد ..

ترددت على عيادة الدكتور جارو ڤارتان للصداقة لا للمرض. لم يكن يشعرني بفارق السن. لم أضعه حتى فى موضع الأب أو الأخ الأكبر. هو صديقي. تختلط ـــ فى مناقشاتنا ـــ تطورات الأوضاع السياسية وأحوال الجو والمسرحيات والأفلام وما تنشره الصحف. إذا تكلم، اتجه إلى محدثه بنظرة مباشرة كأنه يتعرف إلى رد الفعل. أبدى ملاحظات، لا أتدبر بعضها جيدا. يظل على هدوئه. يأذن لي ـــ بمداعباته ـــ بتبادل النكات والدعابات. أدرك مشاعره العميقة تجاهي، مشاعر لا ترتبط بسن، ولا تجربة عمر، ولا مكانة اجتماعية.

البناية على ثلاث واجهات. طابقها الأرضي يشغله مصنع للبلاط. يكتفي بالباب الرئيسي مفتوحاً على شارع إسماعيل صبري، وتحولت الأبواب الأربعة الجانبية على ڤاترينات لعرض نماذج من إنتاجه، بينما ظلت الأبواب الخلفية مغلقة. أول الطوابق الثلاثة تشغله عيادة الدكتور جارو، والثاني لأسرة صاحب البناية والمصنع. اسم الحلبي يشي بانتسابها إلى سوريا. أما الطابق الثالث، فيبين ـــ من النداءات والمناقشات المترامية من شرفاتها ونوافذها ـــ أنها أسرة كبيرة العدد ..

الشرفة ـــ فى زاويتي البناية ـــ تطل على حارة صغيرة، تفصل بينها بين مجيرة غطى الجير معظم مساحتها، وتناثر على الجانبين رصات

طوب أحمر وشكاير أسمنت، وتطل — من الناحية الثانية — على شارع إسماعيل صبرى بحركته الهادئة ودكاكينه. ومن الخلف تبدو مئذنة جامع سيدى علي تمراز، والشارع الخلفي الممتد أمامها إلى شارع التمرازية. يفضي — من ناحية — إلى شارع رأس التين، ومن الناحية الثانية إلى الشارع الموازى لشارع الميدان.

النظر من شرفة الزاوية يمضي إلى التقاء شارع إسماعيل صبرى بتقاطعات شوارع فرنسا والتتويج وطريق الكورنيش. فى نهاية الامتداد السور الحجرى المطل على المينا الشرقية، تتناثر فيها — عن بعد — قوارب صيد العصاري من المياس والبورى والبربوني والمرجان ..

قال:

— ماذا تقرأ هذه الأيام ..

عرفت — من أحاديثه — أنه أجاد — بعد قدومه إلى القاهرة — قراءة العربية وكتابتها، وإن لم يستطع أن يتخلص من اللكنة. هل لأنه قليل الاحتكاك بالمجتمع الذى يعيش فيه؟. ربما استبدل الكلمة العربية بمفردة من لغته التى لا أعرفها، أو بالإنجليزية، فتسهل متابعتى.

قلب — ذات عصر — فى الكتب التى غطت واجهة المكتبة الخشبية الصغيرة. سحب من أسفل، طاولة علاها التراب.

قلت لنظرته المحرضة:

— لم ألعب الطاولة من قبل.

قال:

— أعلمك.

أردف فى لهجة من يملي أمراً:

— لا تكتف بالقراءة هواية وحيدة!

تعددت محاولاته. يفتح ضلفتي المستطيل الخشبي. يشير إلى مفردات اللعبة: الدبش، الزهر، اليّك، شيش بيش ..أقلده فى نقلات القشاط. ألاحظ عدم انبساطه. أطلب تكرار معاونته.

هز رأسه — فى النهاية — وهمس:

— لا بأس بالقراءة هواية وحيدة!

قلت:

— أركز على قراءات أفيد منها فى الكتابة عن الاحتلال الإنجليزى لمصر ..

— لكن مصر دولة مستقلة ..

— أناقش وجودهم العسكرى فى منطقة القناة ..

— لن يخرج الإنجليز من مصر إلا بالقوة ..

ثم وهو يهز رأسه:

— إنهاء الاحتلال الإنجليزي هدف يجب أن يتفق المصريون عليه.

قلت :

ــ النقراشي لا يتعامل مع القضية المصرية بالجدية المطلوبة ..

ــ سخطك على تحركات النقراشي .. لا ينفي إعجاب الناس به ..

وابتسمت عيناه اللوزيتان:

ــ ألم تر حفاوة المصريين باستقباله؟

وغلب على صوته سخرية:

ــ أعجبهم قوله للإنجليز فى مجلس الأمن: أخرجوا من بلادنا أيها القراصنة!

قلت:

ــ مشكلة الحكومات المصرية أنها وجدت فى الشيوعية خطراً وحيداً.

قال:

ــ ما تشهده مصر الآن مظاهرات لم تعرفها منذ ١٩٣٥ ..

وسرح بنظراته:

ــ من متابعتي .. أتوقع المقاومة المسلحة ..

وسكت.

يعد نفسه من المحظوظين بعد أن منعت الحكومة الجنسية المصرية عن معظم النازحين من الأرمن، لكنه يحرص أن يظل على الهامش. لا شأن له بقضايا المصريين ولا مشكلاتهم. يشاهد ــ ويتابع ــ مشكلات لا

تخصه، لا تجره إليها. يكتفي بالإنصات، ومحاولة الفهم، لا يتدخل بملاحظة، أو برأي. يجتنبه الحوار، ثم ما يلبث أن يتنبه ..

بدا أنه رسم لوحة للعالم، وشاها بالألوان والظلال. استقر على أن هذه هى صورة العالم. رفض ما عداها من صور تختلف عما رسمه فى لوحته. بدا العالم غريباً، ومعقداً، ومربكاً، ومن الصعب تغييره ..

قلت لمجرد أن أكسر الصمت:

ــ انتهى النقراشي منذ حادثة كوبري عباس ..

ونظرت ــ بتلقائية ــ ناحية الشرفة المطلة على المينا الشرقية:

ــ ضغط على كل الأزرار فأحدث ما نشهده الآن من إضرابات ومظاهرات ..

طقطق بلسانه فى استياء، وظل صامتاً ..

قلت :

ــ أثق أن استقلال مصر يشغلك. إنها وطنك الثاني ..

ــ تغيظني عبارة وطنك الثاني ..

وومضت عيناه بما لم أتبينه:

ــ أعرف أنى لست فى وطني .. طائر بعيد عن سربه ..

وسرى فى صوته تأثر واضح:

ــ صعب أن تحيا فى بلد لا أهل لك فيه ..

قلت :

ــ نحن أهلك يا دكتور جارو ..

وهو ينتزع ضحكة :

ــ كلام جميل .. لكن ما تبقى من أهلي يحيون فى الوطن أيضاً ..

قلت :

ــ الوطن مفهوم برجوازي ..

قال جارو ڤارتان:

ــ هذه مجرد كلمات نظرية .. شعارات لا معنى لها ..

ثم وهو يعدل النظارة الطبية فوق أنفه:

ــ يضايقني تباين النظرتين: الشفقة والرفض. الشفقة لأني مطرود من بلدي، والرفض لأني أجنبي ..

وشوح بيده:

ــ دعك من أنى طبيب ولست مجرد لاجئ ..

قلت:

ــ ألم تفكر فى الزواج؟

ــ قرار الزواج إن لم يتخذ فى وقته المناسب، فعلى الإنسان أن يتناساه!

وشرد فى الفراغ بعينين ساهمتين:

ــ كان الزواج متاحاً فى أعوام إقامتي داخل المخيم. شهد المخيم ــ فى أعوامه الأولى ــ حالات خطوبة وزواج، سرية وبلا إجراءات قانونية أو دينية. مجرد أن يقتنع أحدهما بعرض الآخر، يمارسان حياتهما الزوجية باعتبارها كذلك. من يلتقط طرف الخيط. فطن مسئولو المخيم إلى الزيجات المفاجئة، والتى لم يتحدث عنها أحد. شجعوا قيام أسر بواسطة الكنيسة. زادت حركات الزواج والإنجاب. انشغلت حتى الأذنين فى ولادة جيل جديد من الأرمن. اكتفيت ــ كما ترى ــ بهذا الدور. لم أشارك فى هوجة الزواج، لأنى لم أتصور نفسي زوجاً فى ظروف تفتقد الاستقرار ..

وران انكسار على صوته:

ــ غاية ما أستطيع القيام به الآن هو دور الأب!

حدثني عن فترة ما بعد استقراره فى الإسكندرية. تعرف إلى عائلات أرمنية، كون صداقات مع المترددين على العيادة، ومع جيران البيت. مرة وحيدة تطورت العلاقة مع امرأة مطلقة من الإسكندرية. لمحت بالموافقة على زواجهما، وإن تحدثت عن رفض الإسلام زواج المسلمة من كتابي. تقبل فكرة الحياة وحيداً. انطوائيته تغلبت. يترك العيادة إلى البيت، وإلى زيارات متباعدة إلى النادي الأرمني "ديكران يرجات". راجع نفسه فى لحظة التفات إلى الوراء. كان الأفق بعيداً، فآثر العزوبية.

وهو يلقي فى جوفه حبة متداخلة الألوان، أتبعها بجرعة ماء:

ــ لعلاج أمراض الشيخوخة!

وأغمض عينيه. بدتا كشريطين أسفل حاجبيه:

ـ أنا مثل بناية مهددة بالانهيار .. تعالج تصدعاتها بالترميمات، لكنها تظل عرضة للسقوط فى أية لحظة ..

قلت:

ـ كلنا بنايات مهددة .. الموت لا يفرق بين كبير ولا صغير ..

تباطأت الكلمات على شفتيه:

ـ هناك الاحتمال والحتم. أنا الآن فى مرحلة الحتم .. الانتظار ..

وأنا أرنو إليه بنظرة مشفقة:

ـ فى ظهور كل صبح ما يدعو الإنسان إلى شكر الله!

كان يشعر أن الذاكرة لم تعد تسعفه. يظهر تخوفه من انسحاب ذاكرته، فينسى ما لا يصح نسيانه: هل سأظل طبيباً إن نسيت الطب؟!

يحزنه أنه يخفق - أحياناً - فى استدعاء الأمكنة والقسمات والتواريخ. تغيب عن ذاكرته تماماً. يضغط على جبهته فى محاولة للتذكر. يخلي يده، ويهز رأسه فى أسف. يرفض كل الأسباب، ويطمئن إلى أن الشيخوخة ربما كانت ـ وحدها ـ هى السبب. يخشى ـ من تلاشي الذاكرة ـ أن ينسى فترة حياته فى أرمينية. إذا حدث ذلك، فسيصبح ـ والتشبيه له ـ مثل مصعد معطل بين الطوابق!

قال:

ـ من الأفضل أن يرحل المرء قبل أن يدركه خَرَف الشيخوخة ..

قلت:

ـ برنارد شو تجاوز التسعين دون أن يفقد صفاء ذهنه ..

وهو يومئ برأسه:

ـ برنارد شو عبقري. أما أنا فمجرد عجوز أرمني ..

***

التفت إلى ما يشبه النقرات على باب حجرة الكشف ..

ثمة شئ ما فى عينيها، اجتذبنى إليها. عينان واسعتان تفيضان بالبراءة والبساطة ..

استرقت النظر إلى ملامحها: جمال طفولي، وجسد عفي - هذا هو التعبير الذى يحضرني - وعينان زرقاوان، وأنف دقيق، وشفتان رقيقتان كورقتي وردة. فى وجنتيها غمازتان، تبتسمان مع ابتسامتها الدائمة. تدير على إصبعها - بعفوية - خصلة الشعر الكستنائي المسدلة وراء أذنها. لا تستعمل المساحيق، ولا أحمر الشفاه. ترتدى فستاناً أبيض، على جانب صدره الأيسر رسم وردة حمراء ..

اتجهت نحو الدكتور جارو بابتسامة كأنها جزء من ملامحها:

ـ نورا أندريا بابيچيان .. مصرية من أبوين أرمنيين ..

هز رأسه يستحثها على المتابعة ..

ـ أعدّ رسالة عن مذابح الأرمن أعوام الحرب العالمية الأولى وبعدها.

ـ وبماذا أفيدك؟

ـ قيل لى إنك قد تفيدني ..

أسند رأسه إلى ظهر المقعد، وأغمض عينيه من خلف النظارة الطبيـــة، وهمس بنبرة يشوبها أسى:

ــ أنت تعيدين أياماً لا أحبها ..

اكتفت بالنظر إليه، ثم قالت:

ــ ربما أنت الوحيد الذى عاش ما حدث ..

وهو يهز رأسه:

ــ فى مصر .. ربما ..

ــ هل نبدأ الآن؟

ــ ماذا؟

ــ التسجيل ..

ــ المفروض أن أوافق أولاً ..

واعتدل فى جلسته:

ــ إن وافقت فستكون لقاءاتنا فى غير أوقات العيادة ..

وقال فى لهجة باترة:

ــ عصر الغد .. فى الرابعة والنصف عصراً ..

أدركت أنه خصص لها من الوقت ساعة ونصفاً. يبدأ تقاطر المرضـــى فى السادسة.

ـ ٣ ـ

زيارات المصادفة إلى عيادة الدكتور ڤارتان لقـــاءات أحـــرص علـــى مواعيدها، وأنتظرها. لا أدري ــ على وجه التحديد ــ ماذا يجذبني للقائها؟

لم أستطع أن أبعد عن مخيلتي ابتسامتها الطفولية، وعينيها الصـــافيتى الزرقة، وشفتيها الرقيقتين، وخصلة الشعر التى تلفها حول إصبعها وهـــى تتحدث.

قلت لفيصل مصيلحي:

ــ التقيت بفتاة أشعر أنها ستدخل حياتي ..

ــ لماذا؟

ــ مجرد إحساس قلت من خلاله لنفسي إن تعرفي إلى هذه الفتـــاة لـــن يكون عابراً ..

ــ لم أعرف أنك ممن يبحثون عن صداقة البنات ..

ــ ولا أنا أعرف.

ورفعت كتفيّ:

ــ فتاة جميلة .. استلطفتها.

ــ أنا لا أصدق حكاية الحب من أول نظرة.

ـــ لم أقل إنى أحببتها. قلت إنى شعرت بأنها ستدخل حياتي.

ـــ بمعنى ؟

لم يشغلني إن كان ما شعرت به هو الحب من أول نظرة ـــ كما قال فيصل بلهجته الساخرة ـــ . لم يشغلني حتى الاندفاع إلى فتاة لم أعرفها قبل لقائنا بعيادة الدكتور جارو، ولا عرفت سوى ما قالته عن اسمها وعملها. هى لم تجتذبني لجمالها ـــ لا أنكره ـــ فقط، وإنما لأشياء أخرى يصعب أن أحددها.

أعدت القول فى هيئة المدافع:

ـــ أتمنى أن تدخل حياتي. صداقة .. معرفة .. الحب ليس شرطاً.

وهو يبدي الحيرة:

ـــ كلام لا أفهمه!

ثم وشى صوته بلهجة وعظية:

ـــ لا تفعل ما يغضب الله!

كانت لى علاقات، انتهت أو استمرت. إخلاص عبد الفتاح زميلتي فى قسم اللغة العربية. واربت الباب، فدخلت. جارة الشقة المقابلة، أومأت بابتسامتها الواسعة، ثم بإشارتها. فطنت ـــ عقب عودتي من لقائها بأول شاطئ الأنفوشي، أنها ليست فتاتي. ترددت مرة وحيدة على كوم بكير. تقيأت فى مدخل الغرفة المبهرجة، الكابية، وتركت الحى بلا عودة ..

بدت لى نورا شيئاً مختلفاً ..

أدركت أنها ليست مجرد هَبَّة هواء منعشة، تغيب فى اللحظة التالية. لم أكن التقيت بها من قبل، لكنني توقعت، تمنيت، أن ألتقي بها، وأن تنشأ بيننا صلة لا تنتهي. كنت أتمنى أن أجد الفرصة لنشر ما أقتنع به فى الصحف، وأجد الفتاة التى رسمها تصوري. حياتي حلم أُفُقه اللحظة التى سنلتقي فيها. لم تكن هى الملامح نفسها التى رسمها الخيال، ولا حَدَّسْتُ إن كانت مصرية، أو تنتمي إلى كوزموبوليتانية المدينة. بدت تجسيداً لهلامية الحلم دون ملامح محددة. ملأت حضورنا، حضوري. لم تعد السياسة عالمي الوحيد. عالمي الجديد، الجميل، يتألق بالسحر والأحلام وقطر الندى.

واجهني فيصل بنظرة متسائلة:

ـــ تعرفت إليها؟

ـــ ليس تماماً. قابلتها فى عيادة الدكتور جارو. لم أتوقع زيارتها، ولا عرفت إلا أنها تعد رسالة جامعية عن مذابح الأرمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها ..

أطلق من أنفه ضحكة قصيرة:

ـــ حب من أول نظرة ..

ـــ لا أستطيع أن أسمي ما أشعر به حباً ..

وحاولت مداراة انفعالي فى لهجة هادئة:

— لم أتبادل معها كلمة واحدة ..

— إذن فهو حب طياري؟

— استأذنت فى الانصراف .. لكن الدكتور استبقاني ..

وانعكس تأثري فى تهدج صوتي:

— وهى تلقي بالتحية فى انصرافها، أدركت أنى سأنتظرها كل يوم فى الموعد الذى حدده لها الدكتور جارو ..

— إن لم يكن هذا هو الحب .. فماذا يكون؟

— سمه اهتماماً أو إعجاباً .. هى أرمنية ..

قاطعني:

— أرمنية؟!

تجاهلت المعنى الذى يقصده:

— مصرية من أبوين أرمنيين ..

لم تعد تشغلني ذكريات الدكتور جارو، بقدر ما يشغلني اقتناص الفرصة لألفت نظر نورا. ترنو بنظراتها ناحيتي. كنت أفتعل أية مناسبة للتوجه بالكلام إليها. أبدي ملاحظة، أو أوجه سؤالاً. مجرد أن أتحدث إليها، أجذب اهتمامها. لم أفكر فى مدى العلاقة التى يمكن أن تنشأ بيني وبينها. لم أسأل نفسي: ماذا بعد؟ ولا دار ببالي إن كانت ستقوم بيني وبينها علاقة من أى نوع. مجرد أن ألفت انتباهها. تجيب، أو تعيد السؤال. ترد،

تناقشني. توافق، وتخالف، وتبدي الملاحظات. لكنها تظل فى انشغالها بالحديث مع الدكتور جارو. أتوقع، أتمنى، أن تلحظ نظرات الود المتطلعة إلى عينيها. يعروني إحساس بطل الخرافة الذى غمر بالماء حتى ذقنه، بينما تدلت أغصان الفاكهة فوق رأسه. كلما حاول أن يشرب، أو يلتقط الفاكهة، لحقه الإخفاق، فظل بلا طعام ولا شراب ..

***

أخرجَت جهاز تسجيل من حقيبتها. وضعته على الطاولة الصغيرة أمام المكتب، تفصل بين مقعدين جلس على أحدهما الدكتور جارو، وجلست الفتاة في مواجهته. كنت على المقعد المواجه لباب الصالة ..

ناوشني الحرج. لم يكن يتحدث عن المترددين على العيادة، لا مجرد إشارة إلى حالة تولي علاج صاحبها ..

— هل أنتظر فى الصالة؟

وهو يربت ركبتي:

— يهمني أن تعرف ما حدث ..

واتجه إليها بنظرة مثقلة بالحزن:

— ما جرى أستعيده كومضات: الأسواق. الميادين. أبراج الكنائس. زخات الرصاص والقذائف. الصراخ والقلق والخوف. الجرحى. القتلى. الصحراء. المنافي. الخيام. قمم الجبال. القمل وحمى التيفوس. النظرات

الرافضة والمشفقة والتى تقطر حقداً. قطاع الطرق. مسلحو العشائر. طفل فى حوالى العاشرة يتلفت فى حيرة وهو يبكي. امرأة تلقى طفلها على الأرض وهى تصرخ، وتجرى. طوابير متلاصقة، ممزقة الثياب، حافية الأقدام، يدفعها الجنود الأتراك. ساق مبتورة غطاها السواد. جثث تفحمت من حرارة الشمس. عظام متيبسة تتخلل الرماد، تشي بالاحتراق الذى التهم أصحابها. حفر موت ومقابر جماعية.

تململت نورا فى جلستها:

ـ هل نبدأ من البداية؟

قال:

ـ حتى الآن لا أصدق أن ما حدث قد حدث بالفعل. لا أنسى الأثاث والملابس والأمتعة وكل ما فى البيوت والدكاكين والمخازن، وضعت فى ساحات مسورة، وعرضت للبيع. اقتصر البيع على الأتراك والأكراد والعرب. لم يعد الأرمن يملكون أى شئ. حتى الجوع والعطش لا يعرفون متى ولا كيف ينتهي. حتى أسماء الأماكن الأرمنية، القليلة، مَحَتْها حكومة الأتراك. استبدلت بها أسماء تركية.. لا تأذن حتى للأرمن بنطقها ..

واتجه الرجل ناحيتي بالنظرة الحزينة:

ـ قبل أن تولد مضى العثمانيون عن العالم العربي، بعد احتلال أربعمائة سنة ..

أردف وهو يضغط على يدي:

ـ أتصور أنك قرأت عن جرائم العثمانيين .. جرائم الإبادة فى أرمينية أشد بشاعة. لم يكن ما حدث مجرد إبادة شعب، قتل وتشريد مليون ونصف مليون مواطن من أبناء أرمينية، نصفهم من الأطفال. المجلدات والكتب العلمية تمزقت إلى أوراق، غلف فيها الجبن والتمر وبذور الثمر. المخطوطات والمنمنمات الأثرية والرموز المعمارية، وكل ما يتصل بالحضارة الأرمنية، بداية من ثلاثة آلاف سنة .. ذلك كله تعرض للدمار والتشويه. حتى الصلبان نزعت من جدران الكنائس، وسلب ما بها من أثاث وأيقونات، وحولت إلى مخازن.

واغتصب ضحكة باهتة:

ـ حاولوا حل قضية الأرمن بإبادتهم!..

ثم علا صوته كالمتذكر:

ـ لن تعود أرمينية إلى أهلها ما لم يحرصوا على لغتهم وثقافتهم وروحهم ..

تحدث عن انشغاله بألا يذوب الأرمن فى المجتمعات التى يعيشون فيها. لا يواجهون الذوبان والضياع. انصهر الآلاف من الأرمن فى مجتمعات لا يريدون الإقامة فيها، وترفضهم. لم يكونوا مخيرين فى انصهارهم داخل بنى اجتماعية يختلفون عنها تماماً.

عاودت نورا تحركها المتململ:

ـ هل نبدأ من البداية؟

ألمح فى عينيه أنه قد انعزل عن كل ما حوله، وعن العالم، وأنه ينظر إلى ما يراه وحده. ربما ما استمعت إليه من صور الحياة فى بلاده: البشر والأسواق والكنائس والجبال والأودية والأنهار والقمع والاضطهاد والترحيلات الجبرية والمذابح ..

سكت لحظة. فطنت — لما بدأ فى التحدث — إلى أنه يحاول السيطرة على انفعاله:

— ما بين عامى ١٨٩٤ — ١٨٩٦ تواصلت مذابح الأكراد والجنود الباشبوزق — تسمية تركية — بأمر من السلطان عبد الحميد، ضد شعب الأرمن . ظلت المذابح عاماً كاملاً، مات خلالها ٣٠٠ ألف شخص من القتل والجوع والعطش والإعياء والأمراض والبرد، وهاجر أكثر من مائة ألف إلى البلاد العربية وروسيا والبلقان وأوروبا وأمريكا. لم يكن أمام الأرمن إلا أن يحملوا السلاح. تكونت الجماعات السرية، وتعددت عمليات الاغتيال وتدمير المنشئات التركية ..

ثم اتخذ قرار إبادة الأرمن فى الدولة العثمانية — سراً — فى فبراير ١٩١٥. لجأ العثمانيون إلى الإبادة العرقية ليحققوا القومية الطورانية، قومية الأتراك. جعلوا هدفهم "قومية واحدة وجنس واحد". كان التخلص من الأرمن ضرورة - فى تقديرهم - لقيام الدولة الطورانية. لن تجد أوروبا ما تتحدث عنه بعد أن تزال عقبة الأرمن بين الأتراك العثمانيين والشعوب التركية فيما وراء القوقاز وبحر قزوين.

تلقى الولاة والضباط الأتراك الأوامر شفاهة أو بالبرق. أوكلت المهمة إلى رجال الدرك والعصابات السرية، حتى يبدو الجيش بعيداً. عادت المذابح فى إبريل ١٩١٥. وامتدت حتى عام ١٩١٨، وشملت كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

بدأت المذابح بالمثقفين فى مساء ٢٤ إبريل ١٩١٥. اعتقل الأتراك أكثر من مائتى أرمني ما بين أدباء وشعراء وصحفيين ومدرسين ومحامين وأعضاء فى البرلمان. اقتيدوا — فى الليل — بعيداً عن بيوتهم، وأعدموا، وأعدم ستمائة آخرون فى الأشهر التالية ..

أخليت بيوت الأرمن، وصودر الأثاث، وبيع النساء والأطفال فى المزاد العلنى، أو وهبوا إلى العائلات التركية وعصابات الأكراد. أزيلت معالم الآثار التاريخية التى تدل على قومية الأرمن. على أنه كان فى تلك البلاد من يسمون بالأرمن ..

دُفعنا إلى الرحيل، النفى الإجبارى والتشريد ..

كان الرحيل سيراً على الأقدام. وكنا — أحياناً — نجر العربات. لم يكن معنا إلا القليل مما سمح لنا بحمله. امتلأت الأعين بالخوف والدمع والموت..

بدأ الضياع، الذوبان، التلاشى، منذ الأيام الأولى لعمليات النفي. القتل والاغتصاب وهجمات العصابات ومواجهة الصحراء والشمس والجوع والعطش. أكل النازحون الكلأ والميتة والجلود المسلوقة. أقدموا — أحياناً — على أكل لحم البشر. استباح الجنود الأتراك أعراض النساء، ودمروا،

وقتلوا. من تروق فى عين الجنود يقتادونها إلى ما وراء أكمات الحجارة والصخور والتلال الصغيرة. يغيبون بها، دقائق تطول أو تقصر. ثم يترامى صوت إطلاق الرصاص. نعرف أنها قتلت بعد أن اعتدى الجنود عليها. وكانوا يربطون الأم وأطفالها بحبل، ويلقون بهم من قمة الجبل، ترتطم بالأرض قطعاً من اللحم المفتت. ربما ألقوا بالبعض أحياء فى النهر. من يحاول الطفو تلحق رأسه رصاصة، فيغوص فى الماء. الجثة التى تطفو على السطح، أو تقذفها الأمواج إلى الشاطئ، تتخطفها الكلاب أو النسور. حصل الجنود على رخصة بفعل كل ما يريدون.

أبيد حوالى نصف السكان الأرمن، وهرب الباقون. صارت المذابح الأرمنية ملمحاً فى سياسة العثمانيين. تكررت، فلم تعد تثير الغضب، ولا الاستياء، ولا حتى مجرد المناقشة. لم يبق من مليونى أرمني - داخل الإمبراطورية العثمانية - سوى مائة وعشرين ألفاً فقط. فى أول يناير ١٩١٧، أعلنت الحكومة العثمانية نهاية القضية الأرمنية، وأنه لم يعد للأرمن وجود فى دولة الخلافة ..

قالت نورا وهى تدير خصلة الشعر المتهدلة على كتفها ..

— أحتاج إلى معلومات كثيرة ..

رفع رأسه ببطء، واتجه إليها بنظرة مثقلة بالحزن:

— ضمت المعسكرات ١٣٠ ألف أرمني. امتدت على طول الطرق، وعلى ضفاف نهر الفرات حول المدن الصغيرة: مسكنة والرقة والزيارة والسبخة ودير الزور. أكثر من ألف كيلو متراً قطعها الفارون سيراً على

الأقدام. ابتلعت الصحراء الآلاف. من لاذوا بالكهوف، حاصرهم الجنود بالبترول، وأشعلوا النيران. تضاءل الآلاف إلى مئات، والمئات إلى عشرات. مجرد أشباح كائنات بشرية، تبحث عن جرعة ماء، أو كسرة خبز. ما يحفظ عليها الحياة. بدا الوجود بلا معنى، وأننا نعاني موتاً بطيئاً، مؤكداً.

لم نعد نملك أى شئ. لم يعد بحوزتنا أى شئ. حتى الثياب على الأجساد، انتزعوا ما راق فى أعينهم منها. أجريت امتحاناً فى حلب أثبت من خلاله أني طبيب. أجرينا الكثير من عمليات البتر لأيدى وأقدام وسيقان، بلا معدات طبية ولا مسكنات ولا أدوية.

غاية ما كنا نتمناه هو النجاة بأرواحنا. الفرار من الرصاص، والدفن أحياء، والجوع، والموت عطشاً. يظهر عساكر الأتراك. يطلقون رصاص بنادقهم، فينتهي كل شئ. جثث الموتى الملقاة على امتداد الطرق، حتى الخلوات والطرق الجانبية، تناثرت فيها بقايا الجثث، وحومت الكواسر فوقها.

لم أكن أعاني الخوف على حياتي فقط. كنت أعاني التنقل - بالخوف - بين الفارين. أداوي المرضى، أسعف الجرحى، أوصي بدفن من يأخذهم الموت. اختلطت مشاعري، وتشابكت. لم أعد أفرق بين ما في داخلي، وما ينعكس من معاناة الفارين ..

ضرب المكتب أمامه بقبضة يده :

— الغريب أن كل تلك المذابح هى الجائزة لوقوف الأرمن إلى جانب تركيا فى حرب البلقان!

قالت فى لهجة مشفقة:

— سأعتبر ما فى التسجيل خطوطاً عريضة، نتناول تفصيلاتها فى الجلسات التالية.

وضعت الكاسيت فى حقيبتها، ونهضت. حملت الحقيبة على كتفها، وهمست: سلام. ومضت ناحية باب الشقة ..

— ٤ —

اعتدت رؤيتها فى العيادة. أنست إليها مثلما أنست إلى الطبيب. تُصيخ السمع — مثلي — لحكايات العجوز عن المذابح التى عاشها وهو يحاول الفرار بحياته. يسيطر بحديثه علينا، لا نتململ، أو نلقي أسئلة. نظل صامتين. نكتفى بالإصغاء، حتى ينهي ما يحكيه، فنبدأ فى السؤال عن الغامض والمجهول ..

تحدث عن بوصلة فى داخله، اتجاهها الوحيد ليس الشمال الجغرافي فى إطلاقه، لكنها تتجه إلى أرمينية وحدها، الملامح الواضحة والشاحبة والغائبة. لا معنى لحياة الإنسان بعيداً عن الأمكنة التى ألفها: البشر والبنايات والمناخ والمعتقدات والعادات والتقاليد.

يقطع كلماته بتنهدات، أو بنظرات صامتة، متأملة، لأفق الميناء الشرقية. يبدو — فى شروده — أنه فى حوار دائم مع نفسه. ربما انعكست مشاعره — أثناء الحوار — فى بسمة، أو تكشيرة:

— مضى العمر وأنا أعد نفسى للعودة إلى أرمينية، تَسرَّب دون أن أشعر ..

وشى صوتها بنبرة مجاملة:

— متعك الله بطول العمر ..

كانا يتحدثان بالعربية، وإن ضمنا كلماتهما مفردات بلغة لا أفهمها. أخمن أنها الأرمنية. مرة وحيدة تحدثا باللغة التى لا أعرفها. غلب على ملامحه انفعال. وكانت تصغي باهتمام واضح. أنظر إليها، أتأملها، أدقق فى الشعر المنسدل، والعينين الزرقاوين، الواسعتين، والأنف الدقيق، والشفتين كورقتى وردة. يختلط الزمان والمكان. يبعث الصوت الطفل راحة فى نفسي. أتجاهل نظرة العجوز الفاهمة ..

أطلت النظر إليها، أنتظر التفاتة قد لا تأتى. لاحَظَت اتجاه نظرتي، فأحسست بالحرج. تشاغلت بالتطلع إلى قارب يصيد المياس فى المينا الشرقية ..

تنبهت على ارتفاع صوتها:

ــ جئت إلى مصر إذن فراراً من مذابح الأتراك ضد الأرمن؟..

قال الدكتور جارو:

ــ لعلى أحببت أن أعمل فى ظروف مواتية ..

ونزع نظارته، وجرى على عينه بظهر إصبعه:

ــ كان من الصعب أن أعمل فى ظروف توتر دائمة ..

أعاد النظارة إلى موضعها، واتجه إليها بنظرة حزينة:

ــ سألت عن البداية. ما حدث اختلطت فيه البداية والنهاية، اختلط فيه كل شيء، لكننى سأحاول ..

واعتدل فى جلسته:

ــ كل الشواهد والإجراءات وأخبار الصحف دلت على أن إبادة الأرمن على أيدى قوات الأتراك كان مخططاً لها من قبل، من قبل أن يوجد تبرير العنف الذى اتخذ ذريعة للإبادة. كانوا يخشون فكرة حصول الأرمن على الحكم الذاتي أو الاستقلال. لو حدث فسيفقدون أقاليم مهمة من أراضى الدولة العثمانية، تشمل أجزاء من اليونان وصربيا وبلغاريا. كتبوا فى صحفهم: يجب أن يباد الأرمن. لقد زاد عددهم إلى درجة أصبحوا معها يمثلون خطورة على العرق التركى. الإبادة هى العلاج الوحيد.

كان قيام الحرب العالمية الأولى فرصة لتنفيذ خطة إبادة الأرمن فى الدولة العثمانية. أذكر يوم الثاني من يناير ١٩١٥، فى بلدة أورمية الفارسية والمناطق المحيطة بها. انسحب الجيش الروسي المرابط فى المنطقة من سنة ١٩١٠، وهاجر الأرمن إلى داخل فارس. من تأخر رحيله واجه المذابح المدبرة بواسطة قوات الأتراك والأكراد التى دخلت المنطقة بعد انسحاب الروس. توالت ــ بعد ذلك ــ عمليات التصفية، حتى على المستوى الوظيفي. أقيل موظفو الدولة الأرمن من وظائفهم، وجرد العسكريون الأرمن فى الجيش العثماني من أسلحتهم ورتبهم، وشكلت طوابير عمل من الجنود الأرمن، وبدأت عمليات مصادرة واسعة للأموال الأرمنية، ثم اتخذ قرار بإبادة الأرمن، والتخلص من القضية الأرمنية. وتكونت بالفعل لجنة ثلاثية للإشراف على تنفيذ برنامج الإبادة. صدرت الأوامر بإبادة كل الذكور الأرمن من سن اثنتى عشرة سنة.

دفعوا الأكراد إلى قتل الأرمن فلا يحدث أى تقارب بينهما، ويظل العداء قائماً. لم يجد الجنود الأكراد فى هجومهم على البنادر الصغيرة والقرى سوى مقاومة ضعيفة، بوسائل بدائية. كان أكثر الرجال القادرين مجندين فى جيش السلطان. جرت مذابح جماعية مرتبة، أبيد فيها البشر، وأزيلت القرى. لم يبلغ حلب والموصل سوى خمسين ألفاً من حوالي سبعمائة وخمسين ألفاً فى بداية رحلة النفي ..

أذكر من الولايات التى تنقلنا بينها: ديار بكر، وان، بتليس، أرضروم، خربوط، بورصة، أضنة، موش. تصور قادة تركيا أن الأرمن فى ترحيلهم إلى البلاد العربية — عبر الصحارى والجبال — سيجدون ظروفاً دينية وعرقية معادية، ويواصل العرب مهمة إبادة الأرمن. لكن ذلك لم يحدث. قدم العرب العون إلى الآلاف من الأرمن الذين طاردهم الموت، وواجهوا المجهول ..

قتل الكثيرون فى صحراء "مارات"، على بعد كيلو مترات من دير الزور ..

طالعتنا دير الزور — بعد أيام طويلة — فيما يشبه التيه. المدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات. يصلها جسر بالجزيرة الصغيرة فى وسط النهر. أذكر الأشجار والمزروعات التى كانت تغطي مساحات الرؤية فى الجزيرة. تحددت إقامتنا — فى الأشهر الأولى — داخل الجزيرة. لا فرصة للفرار. يحيط الجنود العثمانيون بالمناطق المقابلة. مراكز حراسة، تقف على الجسر الموصل بين دير الزور والجزيرة، والجسر الآخر الموصل بين الجزيرة وأرض ما بين النهرين. كان العرب يعبرون

الجسرين فى حرية، دون أسئلة، ولا تفتيش. أما الأرمن فلابد من إبراز ما يحملون من وثائق، وإخضاعهم للمراقبة والتفتيش ..

لاحظت نورا أنى بدأت أتململ فى جلستى، وهو يعيد ما سبق أن رواه. نورا تنصت — أو تتظاهر بالانصات — وترنو ناحيتي بنظرة جانبية، مبتسمة.

قال الدكتور جارو:

— تركت تركيا أعداداً من الأرمن يفرون إلى البلاد العربية. أوعزت للعرب بقتلهم، فرفضوا. وهو ما يحسبه الأرمن للعرب ..

ثم وهو ينقر على المكتب بسبابته:

— ما قدمه العرب من مساعدات للأرمن كان ينطوي على مجازفة غير محسوبة. رفض الولاة والرؤساء والموظفون ذوو الأصول العربية أن ينفذوا الأوامر الصريحة بإبادة الأرمن المرحلين، وواجهوا عقوبات بلغت حد الإعدام. لم ينفذ الوالي العربي فى دير الزور ما تلقاه من أوامر عثمانية. زاد فشيد مبنى لحوالي ألف من أطفال الأرمن، واستضافهم — لفترة — فى دير الزور — قبل أن يطرد من منصبه. كنت واحداً — لك أن تعتبرني كذلك — من المندسين وسط هؤلاء الأطفال ..

فى سبتمبر ١٩١٥ تمكنت السفن الإنجليزية والفرنسية الموجودة فى البحر المتوسط من نقل آلاف الأرمن إلى الإسكندرية وبورسعيد. كانت الحياة قاسية. الطعام يصل بصعوبة، لا يزيد عن خبز وجبن وزيتون

وبصل ولبن للأطفال. كنت واحداً ممن يعانون الجوع والمرض والإرهاق والبرد والتيفوس والظروف القاسية ..

أقمت ما يقرب من الشهر فى خيمة، ضمن قرى من الخيام، خصصت للمهاجرين الأرمن فى الإسكندرية. جاوز عملي كطبيب مجرد الإقامة فى خيمة. صرت واحداً من أطباء الصليب الأحمر الأرمني، إلى جانب أطباء وممرضات من جنسيات مختلفة. أفادتني مهنتي فى الخروج إلى المدينة. لم ألجأ إلى القفز فوق الأسلاك الشائكة، ولا إلى التسلل فى ظلمة الليل ..

أضاف فى نبرة تأكيد :

ـ لولا إقامتى القصيرة فى دير الزور، ما استطعت التنقل مع أعداد ظلت فى تناقص، إلى حلب، ومنها إلى الإسكندرية، لأفتتح هذه العيادة ..

وتنهد:

ـ هذا اختصار لرحلة طويلة، قاسية، لا أتصور كيف عشتها.

وأشاح بيده:

ـ ذلك زمن قديم. رويت ما احتفظت به ذاكرتي ..

قالت نورا:

ـ ألم تنس بعض الوقائع؟

مط شفتيه وهز رأسه:

ـ لا أظن!

رنوت إلى العجوز. آلمتنى نظرة مفعمة بالحزن. أدركت أن الرجل يعاني ..

وهى تدير خصلة الشعر بإصبعها:

ـ لماذا يرتكب الناس هذه الجرائم؟

واتجهت إليه بملامح متسائلة:

ـ هل اعتبر الأرمن مذابح العثمانيين قدراً؟

قال جارو:

ـ مشكلة الحركة القومية الأرمنية أنها لم تكن موحدة. لم يحدث تنظيم يحاول منع عمليات العنف والذبح التى راح ضحيتها آلاف الأرمن ..

ولجأ إلى التعبير بيديه:

ـ قلبت الحرب العالمية الأولى كل الحسابات، وأحدثت ارتباكات فى صفوف الأرمن لم يكونوا قد أعدوا أنفسهم لها ..

ثم وهو يلوح بسبابته:

ـ مع ذلك، دفع جميع الذين كانوا وراء المذابح حياتهم بواسطة جماعة الطاشناق الأرمنية. أفلح فدائيو الجماعة فى اغتيالهم قبل مرور سبع سنوات على مذابح ١٩١٥.

واكتسى وجهه إمارات جدية، وقال كمن يحسم أمراً:

ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل هذا القرن، ذبح ما يقــرب من المليون نسمة. القرار الذى اتخذه كل الناجين من المذبحة، وإن لم يعلنه أحد، هو ألا ننسى ما حدث فى تلك الأيام. نحترم ذكرى من قتلوا. قد ينسى العالم، لكن ليس من حقنا، ولا واجبنا، أن ننسى.

لم يتحدث عن أسرته: أبويه، زوجته وأولاده، إن كان قد تزوج وأنجب. هو الدكتور جارو ڤارتان، المواطن الأرمني. ثمة شيء يغيب عن وجدانــه منذ أجبر على الرحيل. ما حدث قطع الفرع بالجذور، فقــد الصــلة بمــن ينتمي إليهم، وإن لم يقتصر حنينه إلى المعاني المطلقة. من المســتحيل أن تترك وطنك، وتتخلى عن البيئة التى ألفتها، وأحببتها، إلى عالم تجهله، ولا تعرف عن ناسه، ولا عنه، شيئاً. من المستحيل أن تختلق لنفســك وطنــاً. الوطن حيث نشأت، وكونت الصداقات، وعايشــت الــذكريات، وخضــت التجارب الحلوة والمرة، والمغامرات الحسية، ونسجت العلاقــات، وألفــت الأمكنة، هى ـ فى الذهن ـ والوجدان ـ حتى لو أغمض الإنسان عينيه.

العيادة هى حدود صداقتنا. حدود العالم الذى تعيش فيه هذه الصــداقة. فى حياته مناطق ومساحات أغلق أبوابها جيداً، أحاطها بأســوار لا يــأذن لأحد بالقفز فوقها. لا لقاءات خارج الشقة، أو البيت. لم يشر حتــى إلــى مكان إقامته، بعيداً عن العيادة. التقطت من كلماته أسماء: تــرام الرمــل، الإبراهيمية، طريق الكورنيش، مدرســة بوغوصــيان الأرمنيــة، نــادى سبورتنج، مصلحة الجوازات، التريانون .. لم تشــكل قســمات واضــحة فيسهل تصورها.

حين أبديت ملاحظة على اتساخ البالطو الأبــيض، تحــدثت نــورا ـ فوية ـ عن تعدد البلاطي البيضاء النظيفة، المكوية، فى دولاب حجــرة نومه. أدركت أنه يستقبلها فى بيته، يخصها بما لا أعرفه، ولا أشار إليــه فى جلساتنا. لم أناقش الأمر ـ بيني وبين نفسي ـ ولا خمنت أفقاً مثيراً.

داعبته بالقول:

ـ أتصور أن حياتك موزعة بين البيــت والعيــادة، أو فــى الطريــق بينهما..

سرح فى هيئة من يتأمل معنى الكلمات، ثم أومأ موافقاً ..

أطالت نورا التحدث عن زيارة العجوز لكنيسة الأرمن الكاثوليك. كانت زيارته الأولى. تناثرت كلمات: المذبح والتراتيل والأرغن والزيت المقدس والمناولة والشموع والتراتيل ..

أرجع العجوز موافقته على اقتراح نورا بزيارة الكنيسة إلى تقدمه فــى العمر. لا بأس من أداء الطقوس الدينية، حتى لو كانت احتمالات الحســاب فى الآخرة ضئيلة.

***

لاحظت نورا ما تعمدته، وإن تصورت أنى أسترق النظر إليها. راحت ترمقني بطرف عينها، كأنها تهم بإمساك اللحظة.

قلت، واليأس يكاد يغلبني لأثير اهتمامها:

ــ هل حصلت على الليسانس من جامعة فاروق الأول .. أو من فـرع جامعة القائد إبراهيم؟

قالت:

ــ جامعة فاروق الأول أنشئت فى ١٩٤٢. أعتز بأني سأكون من أولى الحاصلات على الماجستير ..

وأدارت خصلة الشعر بإصبعها:

ــ إذا كنت خريجة أول دفعة فى قسم التاريخ بآداب جامعـة فـاروق الأول، فإني الآن أول طالبة دراسات عليا ..

فطنت – وأنا أسترق النظر إلى وجهها – إلى الشامة الصغيرة أسـفل ذقنها ..

شغلني – فى اللحظة التالية – تدبير لقائي بها، بعيداً عن عيادة الدكتور جارو. أضع فى عيني نظرة، تشي بصمتها أنى أريد أن أقول لهـا شـيئاً. أصارحها بما أعجز عن البوح به ..

متى؟ وكيف؟ وماذا لو نقلت إلى العجوز ما أعرضه عليها؟ هل تكـون النتيجة ابتعادي عن حياة جارو، وعن حياتها؟

تعددت زياراتي للعيادة. لا لمرض، ولا حتى للقاء الدكتور جارو، وإنما لرؤية نورا. الجلوس إليها، ومناقشتها. يغيب الموضوع المحدد، القضـية المحددة. مجرد أن أجلس إليها. أتأمل الوجه الطفولي، والبشـرة الناعمـة، والعينين الزرقاوين، الواسعتين، اجتذبتني بما لم أستطع تحديـده. شـعور غامض أخفقت فى تفسيره، وإن سيطر على بما يصعب مغالبته. تختلط فى ذهني بأفكار غير محددة، بما يشبه التصورات أو الأحلام. واربـت بابـاً توقعت وراءه ما هو أشد جمالاً من السحر ..

حاولت أن أتماسك، فلا أفضح مشاعري نحوهـا. أخشـى أن يفطـن العجوز، أو تزجرني. ربما لا أدخل العيادة ثانية ..

أجلس فى الصالة ..

الميناء الشرقية ــ من ورائي ــ فى مدى الأفق. عيناى مسمرتان علـى باب العيادة الموارب. أتوقع، أنتظر، قدومها. تطالعني بقامتهـا الطويلـة، والشعر المنسدل، والأنف الـدقيق، والشـفتين كـورقتى وردة، والشـامة الصغيرة أسفل ذقنها، والغمازتين المبتسمتين مع ابتسامتها الدائمة ..

أتجاهل نظرة الدكتور جارو، تأخذني اللهفة من ثرثرته ــ هـى فـى لحظات الانتظار مجرد ثرثرة ــ بوقع أقدام على السلم. أنسى حتى وجـود العجوز. حتى هزة الرأس دلالة المتابعة، أنسـاها. تـدعوني بابتسـامتها

المرحبة، ويظل الدكتور جارو على صمته. أقترب منه، وإن لم أجلس على أحد الكراسي المصفوفة أمامه. أتعمد أن تكون جلستي بحيث تراني إذا تحدثت معه. لم أستطع أن أتبين الجدار غير المرئي الذى يفصل بيننا، ويحول دون أن أعترف لها بمشاعري. أدركت أنى فى حاجة إلى جرأة، لا أمتلكها ..

انطبع – فى ذاكرتي – امتداد البنايات من زاوية الحجرة إلى الميناء الشرقية: الشرفات، مناشر الغسيل، النوافذ، الوجوه المطلة، المناور الفاصلة، الأفاريز، المقرنصات، أسلاك التليفون، لافتات العيادات ومكاتب المحامين، النشع المتناثر فى الواجهات ..

لاحظت حرصها على تحاشي النظر ناحية عينى اللتين تمتلئان من قسماتها، وتحملان مشاعرى. شغلني الإفصاح – أو حتى التلميح – بمشاعري نحوها. حاولت أن أنبهها كى تلتفت نحوى بعينيها الواسعتين. أتأمل بحرهما الصافي الزرقة وأنا أتكلم. أسأل، وأجيب، وأناقش، وأبدي الملاحظات. تفاجئني بنظرة وأنا أتأمل ملامحها. أغالب الارتباك. أتظاهر بالشرود، أو بالنظر إلى شيء غير محدد ..

رددت نفسى عن محاولة مد أصابعي ولمس يدها المسترخية على الطاولة. أتمنى لو أني وضعت يدى على بشرتها الناعمة، لو أني تحسستها. أدرك الحاجز غير المرئي الذى حرصت على أن تضعه بيننا.

كان العجوز – إذا تحدثت – يتظاهر بمتابعتي. يهز رأسه دلالة المتابعة بالفعل، لكن عينيه كانتا دائمتى الالتفات نحو الفتاة.

. كانت – إذا جاءت سيرتها فى كلام بيني وبينه – داخل نبرة صوته تهدج، وغلبه الانفعال ..

لم أجد فى نظرات الطبيب المتسللة إليها ما يمنعني من إهمال نمو الإحساس بالحياة فى داخلي. إذا كان يحبها، فهو لا يملك الإطار الذى يضع فيه حبه. لا رفقة، ولا زواج، ولا حتى علاقة عابرة ..

قال لى وهو يطل على صيادي المياس فى المينا الشرقية:

– الشاب لا يحتاج إلا إلى امرأة ليفرغ شهوته ..

ثم وهو يتأمل البقع البنية المتناثرة فى ظهر يده:

– أما من هُم فى مثل سني فإن طقوس ما قبل العلاقة تأخذ أضعاف الوقت الذى تأخذه العلاقة نفسها ..

ورفع رأسه ببطء:

– كنت أعاني مرضاً وحيداً هو الحنين إلى الوطن. تتقاسم حياتي الآن أمراض أخرى فرضتها الشيخوخة!

لم تكن تضايقه المداعبات. يفهم الدعابة، ويستجيب لها. يرد عليها ببديهة حاضرة، يظهر حزناً صامتاً إذا لامست الدعابة حياته الخاصة. يحيط نفسه بسور غير مرئي يصعب اختراقه. لا أستطيع أن أتعرف فى عينيه إلى شيء يخفيه، ولا أن أقرأ مشاعره، وإن أدركت أن وراء الشخصية الغامضة، مخلوق عاطفي، وطيب القلب.

***

استأذنته فى أن يعيد ما رواه فى الجلسة السابقة. تبينت ــ حين بدأت فى إفراغ الشريط ــ أنها نسيت تشغيل جهاز الكاسيت ..

وضع فى راحة يده حبتين من علبة الدواء البيضاء المستديرة. ثم دفعهما فى فمه، وأتبعهما بجرعة ماء:

ــ الخوف ــ وحده ــ هو الذى منعني من العودة إلى أرمينية بعد قيام الجمهورية الأولى فى ٢٨ مايو ١٩١٨. اقتصرت التسمية على العاصمة يريفان والقرى المحيطة. توقعت أن يكون للأحداث امتداداتها. لكن أرمينية ظلت هناك. أحيا بتوقع العودة إليها. أنت تجدين فى أسرتك، عائلتك، حائط الاطمئنان، وأن العودة إليها متاحة وممكنة. يختلف الأمر لو أن الوطن غائب، والعائلة، الأسرة، لا يدرى المرء أين تحيا، إن كانت على قيد الحياة، ولا يدرى كيف يصل إليها ..

وتعكرت ملامح وجهه:

ــ ظلت فى ذاكرتي جثث القتلى الطافية فوق مياه الفرات. اقتحم داخلي ربما بما هو أكبر من الخوف. أتصور نفسي فى الأجساد المنتفخة، المشوهة الملامح ..

تدخلت بالقول:

ــ هل ظللت خائفاً كل تلك السنوات؟

قال:

ــ تحولت الجمهورية الأرمينية الأولى إلى الشيوعية. انضمت إلى الاتحاد السوفيتي. صادرت السياسة حقوق الأرمن عشرات السنين ..

ــ أعرف أن الآلاف عادوا فيما بعد ..

ــ هذا صحيح .. لما أقام الاتحاد السوفيتي علاقاته الدبلوماسية مع البلاد العربية، فتح أبوابه لمن يرغبون من الأرمن فى العودة إلى وطنهم الأول .. عاد حوالي خمسة آلاف .. لم أكن منهم.

ــ لماذا؟

ــ صارت مجرد إقليم فى دولة شيوعية .. احتلال مختلف ..

قلت:

ــ أثق أن الطائرات غيرت فكرة الإنسان عن الوطن ..

أردفت لنظرته المندهشة:

ــ لم نعد نحتاج إلى الأوقات الطويلة للانتقال بين بلد وآخر ..

وربت يدي على كتفه:

ــ العالم كله فى المستقبل هو وطن الإنسان.

ـ ٦ ـ

قال فيصل مصيلحي وهو يعيد الأوراق:

ـ لازلت تصر على السير فى الزقاق المسدود .. فلسطين لن تتحرر بالمقالات ولا بالمظاهرات ..

ثم وهو يهز قبضته:

ـ لن تحررها إلا القوة!

تعمدت اختيار نبرة مهونة:

ـ القوة تملكها الجيوش .. نحن لا نملك إلا المظاهرات والمقالات لتعبئة الرأى العام وإدانة الحكام ..

غاظه تردد "حدتّو" فى إدانة ما تفعله عصابتا شتيرن والهاجاناه ضد شعب فلسطين. سأل، وناقش، وأبدى الملاحظات. لم يقتنع بأسباب الصمت. وجد فى دعوة الإخوان المسلمين ما لم يفطن إليه. كأنه يتعرف إلى دعوة الجماعة للمرة الأولى. اطمأن إليها. أزالت ما عاناه من ارتباك لصمت جماعته عما يجرى فى فلسطين:

ـ أنا مسلم .. والانضمام إلى الإخوان المسلمين قرار صائب .. متأخر..

لم ينضم إلى جماعة ولا تنظيم من أى نوع. اهتماماته دينية، وإن ظلت بلا أطر تحددها. ما يقتنع به يقوله، أو يفعله. لا يشغله إن صادف قبولاً، أو واجه الرفض. كنت أحدس انتماءه إلى جماعة الإخوان المسلمين. آراؤه وتصرفاته وضعته فى إطار أراه من خلاله. الأخوان هم الحراس على شريعة الإسلام، الراعون لمصلحة الأمة. يحدثني عن دروس الشيخ البنا. آراء الإخوان فى أحوال المجتمع. يدفع لي بكتب، تدل عناوينها على ما تنطوي عليه: الإسلام فى طور جديد لحسن البنا، تفسير ابن كثير، إحياء علوم الدين للغزالي، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه لعبد القادر عودة، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين..

قضايا الدين فى المؤخرة من اهتماماتي. تشغلني قضايا السياسة: الاستقلال، الديمقراطية، فساد الحكم. ليست وحدها ما كنت أكتب عنه، لكنها اجتذبتني فيما يشبه الدوامة ..

شارك فى حملة التبرعات. وضع على ساعده الأيمن شارة من القماش باللونين الأحمر والأسود، كتب عليها بخط كبير: انقذوا فلسطين ..

لمح نظرتي إلى الكتاب ــ فى درج مكتبه العلوي ــ عن أعمال المقاومة الشعبية. حدثني عن تعلمه فك أجزاء المسدس، وتركيبه، واستعماله. تدربه على إلقاء القنابل اليدوية. تفرقته بين أنواع المفرقعات والمواد الناسفة وأدوات التفجير ..

قلت:

ــ العنف لن يؤذي إلا المصريين الغلابة ..

فى بالي حوادث إلقاء المتفجرات على معسكرات الجيش البريطاني، وأماكن تجمعاته، وعلى نادي الاتحاد المصري الإنجليزي. أعرف أن الهدف هو إظهار غضب المصريين من احتلال الإنجليز لبلادهم، وأن عدم الجلاء سيؤدى إلى حوادث أخرى، مماثلة. هدف جميل، ومطلوب. أخشى ان تخطئ القنبلة الهدف الأجنبي فتصيب هدفاً مصرياً. عمّق من إحساسي بالخوف والمشاركة وقوع اعتداء على كنيسة فى الزقازيق. اتهم الإخوان المسلمون بأنهم دبروا، ونفذوا، ما حدث. كان فيصل يكتفي بقراءة الأخبار. يقرأها جيداً. ربما أعاد قراءتها، ثم يطو الجريدة. يضعها على طرف المكتب. لا يسأل، ولا يستوضح، ولا يبدى رأياً. حتى النظرة التى أحرص أن تحمل معنى، يتجاهلها، يكتم حتى مشاعره. تظل ملامح وجهه ساكنة، وإن وشت آراءه وتصرفاته بما يخفيه. تكررت رؤيتي له وهو يعيد تلاوة سورتى الأنفال والتوبة، وهو يقرأ كتب حسن البنا، وهو يدخل إلى شعبة الإخوان فى بحري ..

قال:

ــ ليس الأمر كما تتصور ..

أضاف فى لهجة حزينة:

ــ أعادت لى اللجنة العليا للمقاومة طلباً بالسفر إلى فلسطين ..

ثم وهو يشير إلى عينه:

ــ الكشف الطبي أثبت ضعف بصري ..

وحومت نظراته فى الفراغ:

ـ كنت أريد الانضمام إلى كتائب الإخوان..

قاطعته:

ـ قرأت أن الإخوان يريدون مصر عن طريق فلسطين ..

ـ كذب!.. يريدون فلسطين عن طريق مصر ..

واتجه ناحيتي بنظرة متسائلة:

ـ لماذا لا تتطوع؟

ـ لم أفكر فى هذا الأمر ..

ـ ستعود فلسطين بالقتال وليس بالكلمات ..

قلت فى هدوء:

ـ ما قلته يصنع من الكلمات شعاراً جميلاً ..

قال:

ـ هل تتصور أن فلسطين ستعود إلى العرب بمقالاتك؟

وأنا أغالب شعوراً بالعجز:

ـ ما أتصوره أننا لا نتعامل بجدية مع الحدث!

ـ ٧ ـ

كنا نجلس على الكورنيش الحجري. ندلي سيقاننا إلى داخل البحر. يلامسها رذاذ الموج فى اصطدامه بالمكعبات الأسمنتية. أفق الميناء الشرقية يمتد إلى ما بعد حاجز الأمواج بين السلسلة وقلعة قايتباى. مساحات من الزرقة المتصلة بلا انتهاء، أو حتى التقاء السماء بها. وثمة صياد توقف عن التجديف. ترك القارب يطفو فوق الأمواج الهادئة. وكانت الشمس شديدة البياض، فلا نستطيع التحديق فيها، ولا حتى مجرد النظر إليها.

انشغلت بتأمل السمكات وهى تنتفض. تحاول القفز خارج الغزل، أو النفاذ منه ..

قالت:

ـ أكره أن ينتزع السمك من الماء، مثلما أكره أن يعدم الإنسان ..

وأرخت رموشها الطويلة على عينيها:

ـ الأرض هى دنيا الإنسان، والمياه هى دنيا السمك ..

قلت:

ـ أحل الله صيد السمك ..

ـ أنا أتحدث عن قناعتي ..

واتجهت ناحيتي بملامح متسائلة:

ـ لماذا يطلق على المياس صيد العصاري ؟

ـ لأن صيده يتم ـ غالباً ـ وقت العصر ..

ـ لماذا؟

وأنا أظهر الحيرة:

ـ اسألى الصيادين!

ـ ألست من بحري؟..

ـ صلتي بالسمك هى تناوله على المائدة ..

تحدثت عن البحر والصيد والصيادين. فى زراعة الأرض لابد أن نبذر الحب، ونتعهده بالرى، ثم ننتظر الثمار. نحن فى البحر نكتفي بإلقاء السنارة، أو الشباك.

كانت تعرف كل ما يتصل بالصيد. مناطق تجمع الأسماك، وطرق صيدها. وكانت تعيب على صيادي الطراحة والجرافة أنهم يلقون فى المياه شباكاً ضيقة الثقوب، فتصعد بالزريعة الصغيرة ..

حلق غراب من فوقنا. أخفضت رأسها، وأشاحت بيدها:

ـ أكره هذا الطير ..

ـ هل آذاك؟

ـ إنه يأكل ما فوق الماء من سمك الدينيس ..

ـ لماذا الدينيس؟

وهى ترفع كتفيها:

ـ وجبته المفضلة!

صارحتني بأنها تجد نفسها فى منطقة ما بعد ميدان أبى العباس: السيالة وحلقة السمك وشاطئ الأنفوشي وورش المراكب والكبائن الخشبية والباعة وطائرات الأولاد الورقية، والحديقة الواسعة أمام سراى رأس التين..

قالت :

ـ أنا أحب أن أتحدث إلى البحر. مجرد أن أنظر إليه بما فى داخلي..

ثم وهى تدير خصلة الشعر بإصبعها:

ـ ميزة البحر أنه يبتلع كل شئ .. حتى الأسرار ..

ـ أسرارك كثيرة .. إذن لا يسعها إلا البحر ..

ـ أبداً .. لكنني أثق فى صمت البحر ..

ظللت صامتاً، وإن استحثثتها ـ بنظرة مشجعة ـ على مواصلة الكلام. قالت:

ـ كل شئ يذهب إلى البحر .. حتى مياه النهر تنتهي إلى البحر ..

وواجهتني بالسؤال:

ـ هل تجيد العوم؟

قلت:

ــ منذ سنوات أكتفي من البحر بالتطلع إليه ..

***

احتضنت ركبتيها، وحدقت فى أفق المياه الممتد ..

فاجأتني بقولها:

ــ أنت لم تدعني لزيارتك ..

ــ خشيت أن ترفضي ..

ــ ألا تقيم مع أهلك؟

ــ مع والدتي .. أبي مات منذ ثماني سنوات .. وأختي متزوجة ..

ــ أنا أقيم مع أبوى وإخوتي .. ولدان يوسف ويعقوب يملكان مكتباً للتصدير والاستيراد ..

ثم وهى تهز رأسها:

ــ تحدثت إليهم عنك ..

ومدت يدها للمصافحة:

ــ نحن نرحب بزيارتك ..

البيت يطل على المينا الشرقية. فى منتصف المسافة بين تمثال الخديو إسماعيل وقهوة المطري. البيوت المتقاربة الارتفاع، المتشابهة القسمات. ستة أو سبعة طوابق، جدران تآكلت من ملوحة البحر، مداخل رخامية فسيحة بلا مصاعد، نوافذ وشرفات خضراء، مرتفعة بارتفاع الجدران ..

تأكدت من العنوان فى الورقة. ثم ضغطت على الجرس ..

طالعني من وراء الباب الموارب وجه نورا ..

قالت:

ــ أهلاً ..

وفتحت الباب ..

عرفت أنهم يتوقعون زيارتي ..

أشارت إلى شيخ فى حوالى الخامسة والستين:

ــ أبي .. الخواجة أندريا بابيچيان ..

فى وجهه شيء مميز لم أدركه. ربما الجبهة المرتفعة، أو الحاجبين الكثيفين، أو العينين النفاذتى النظرة بما لا يتفق مع تقدم سنه. تناثرت فى ذقنه شعيرات بيضاء لم يحسن إزالتها. يرتدي قميصاً أبيض يكشف عن صدر يفز شعره الأبيض، الكث ..

قال:

ـ تقديم لا يخلو من مجاملة .. أنا مجرد صاحب ورشة صغيرة لتجارة الجلود ..

وأمسكت نورا بساعد سيدة فى أواخر العقد السادس:

ـ أمي .. السيدة ليليان .. خير من تطرز القطيفة بالخيط الذهبي ..

أَمْيَل إلى السمنة. أجادت صبغ شعرها لولا الشعيرات البيضاء البازغة فى المفرق، أوسط الرأس. لها وجه طفل، يخفي حقيقة عمرها، أبيض، مشرب بحمرة. يعلو عينيها حاجبان مثل هلالين صغيرين. ترتدي فستاناً أبيض واسعاً، تناثرت عليه دوائر زرقاء، أحاطت معصمها بغوايش كثيرة، تحدث صوتاً إذا تحركت يدها. لفت منديلاً من الحرير حول رقبتها، وتتدلى على صدرها سلسلة ذهبية، تنتهي بصليب. تدس قدميها فى حذاء مكشوف، أطلت منه أصابع طليت أظافرها بالمانيكير ..

الشقة مربعة الشكل، تتوسط الصالة حجراتها الأربع، تناثر فيها كراسي من خشب الأبنوس المطعم بالذهب، وثمة ردهة ـ ضيقة نسبياً ـ تفضي إلى المطبخ والحمام وشباك المنور المغلق. الجدران مغطاة بورق رسمت عليه ورود زرقاء متباينة الأحجام. ينسجم لون الستائر مع زرقة الجدار. توسطت الجدار مرآة هائلة فى إطار مذهب. ثمة ـ فى الجانب ـ شمعدان كبير من الفضة، إلى جانبه تمثال صغير للعذراء تحمل وليدها. تدلت من الجدران مشغولات يدوية من الكانفاه والسرْما. فوق الطاولة الرخامية

تماثيل صغيرة لطيور وحيوانات، تتوسطها سلة فاكهة من الخوص، بداخلها تفاح وخوخ وكمثرى.

قالت الأم وهى تشير إلى المشغولات المتدلية من الجدران:

ـ التطريز وسيلة لشغل وقت الفراغ ..

قال الأب:

ـ نورا حدثتنا عنك ..

وأنا أبتسم:

ـ قطّعت فروتي؟

ـ بل ألبستك ثوباً من الذهب ..

أردف بلهجة متفاخرة:

ـ تحدثت كثيراً عن مواقفك ضد اليهود ..

ـ ليست ضد اليهود، فلي منهم أصدقاء. أنا ضد ما يحدث فى فلسطين..

قالت الأم:

ـ يقول الخواجة إن انشغالك بقضايا السياسة زاد من اهتمامها بإنجاز رسالتها ..

قلت بعفوية:

ـــ ما الصلة؟

قال:

ـــ أصعب الأمور أن يطرد شعب من بلده ..

وارتجفت عضلة فكه:

ـــ شهدت أرمينية أول إبادة جنس جماعية فى هذا القرن، ثم تلتها بعد ثلاثة عقود محاولة إبادة الشعب الفلسطينى ..

قلت:

ـــ الأرمن عادوا إلى بلدهم .. ويعودون ..

وفى لهجة معتذرة:

ـــ فى فلسطين .. الوضع يختلف ..

تحدث عما فعله العثمانيون فى أرمينية عقب احتلالهم لها. نقلوا إلى الأستانة أربعين ألفاً من الحرفيين والصناع الأرمن. عملوا فى الحرف والصناعات الدقيقة والمشغولات الذهبية، وفى مناجم الفضة، وفى الخياطة والحفر والتطريز واللحام والخراطة، ومهن أخرى كثيرة ..

ثم اتجه بعينيه ناحيتي كأنه يتأمل رد الفعل لما قاله ..

ـــ الشيء نفسه فعلوه فى المصريين بعد أن احتلوا بلادهم ..

تحدث بلهجة تخلو من الكلفة. روى عن قدوم أبويه من أزمير، فى هجرة الأرمن أواخر القرن التاسع عشر. آلاف الفارين من المذابح والمجاعات. استوعبتهم الخيام والعشش فى أفنية الكنائس والمدارس الأرمنية، ثم خرجوا إلى وظائف الحكومة، والحرف التى يتقنها الأرمن، ونقلوها إلى مصر: التصوير، وصناعة الزنكوغراف، وصنع البسطرمة، وإصلاح الأحذية ..

قال:

ـــ عمل أبي ثلاث سنوات فى وكالة ماتوسيان للسجاير بشارع فرنسا. لم تكن مهنته، فاستقال منها، وافتتح ورشة صغيرة لصناعة الجلود ..

واستعاد لهجة التفاخر:

ـــ كما ترى، فإن إنجابي هو إنجاز أبي الأول!

تحدث عن الإسكندرية الكوزموبوليتانية، إسكندرية الخواجات. المقاهي والمخابز ومحال البقالة والدخان والسجائر والكازينوهات واللوكاندات .. كلها للأروام والأرمن والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين ..

قلت ضاحكاً:

ـــ لهذا تهتف المظاهرات: عاشت مصر حرة مستقلة ..

قال:

ـــ حرة من الاحتلال العسكري الإنجليزي ..

دندن بأغنية شعبية أسبانية، تروي عن أهل المدينة الذين ألقوا بالمسيح فى النهر لأن السماء لم تمطر ..

قال:

ــ هذا هو الجزء الذى لقيته الجاليات الأجنبية فى مصر ..

وأشار إلى صدره بأصابع مضمومة:

ــ نحن قدمنا للإسكندرية خدمات كثيرة ..

لاحظت تغيراً فى سحنته، وما يشبه الغضب ..

ــ ٨ ــ

قال الخواجة أندريا وهو يدفع أمامي الطبق الكبير بأصابعه:

ــ المياس هو أجمل أنواع السمك فى المينا الشرقية ..

تذكرت السؤال:

ــ لماذا يسمونه صيد العصاري؟

ــ لأن أنسب أوقات صيده ساعات العصاري ..

وأشار بيده ناحية البحر:

ــ ألا تلحظ تعدد البلانسات فى ذلك الوقت؟

وحدجني بنظرة متسائلة:

ــ أظن أنك تحبه؟

قلت:

ــ أفضله بالبطاطس ..

ــ المهم أن تحبه. نورا ترفض السمك على المائدة ..

كرر قوله إن أجمل المياس صيد العصاري. ترصه زوجته فى الصينية. تضع خلاله وفوقه، شرائح البطاطس والبصل المبشور والطماطم. ترش الملح والفلفل الأسود. يعود البواب بالصينية من الفرن، أكلة لا تنسى.

وابتسمت عيناه:

ــ هذا ما ستفعله ليليان فى المرة القادمة ..

قالت نورا :

ــ نحن نحتفل معك بعيد ٢٨ مايو ..

استطرد الخواجة أندريا:

ــ الأرمن ــ حتى المقيمون فى المنفى ــ يشاركون حزب الطاشناق احتفاله بعيد قيام أول حكومة فى العصر الحديث ..

ثم وهو يهز رأسه:

ــ ظلت حوالي ألف يوم فقط .. لكنها أول حكومة مستقلة بعد مئات الأعوام من سقوط آخر ممالك الأرمن ..

ولجأ إلى العد بأصابعه:

ــ احتفالاتنا كثيرة .. فى ٢٤ إبريل نحتفل بعيد الشهداء، اليوم الذى أعطيت فيه إشارة البدء لقتل مليون ونصف المليون أرمني سنة ١٩١٥ على أيدي القوات العثمانية. فى ٢٦ يوليو نحتفل باليوم الذى اخترع فيه القديس الأب ميسروب ماشتوتس الحروف الأرمنية ..

ولانت ملامحه:

ــ احتفالاتنا كثيرة ..

ألفت التردد على البيت. أجلس فى الصالة. يستعيد الخواجة أندريا ذكرياته. تشرق أحاديثنا وتغرب. يكتفى يوسف ويعقوب ــ إن كانا داخل البيت ــ بالتحية السريعة، ويمضيان إلى حجرتهما، أو إلى خارج البيت ..

تحدث عن عضوية أبيه فى حزب الأرمينا جان، أول الأحزاب السياسية الأرمنية. أسسه عدد من المدرسين الشباب. قصر هدفه على تحرير أرمينية. لم يصله بأهداف سياسية ولا اجتماعية. التحرير هو الهدف الأول، وهو الهدف الأخير ..

وهو يأخذ طبق الشاورمة من أمام يعقوب:

ــ تحب الشاورمة؟

أومأت بالموافقة ..

قال:

ــ هل تعرف أن الشاورمة أكلة أرمنية؟

قلت فى لهجة مجاملة:

ــ كنت أظنها شامية؟

ــ بل أرمنية. نقلها المهاجرون الأرمن من بلادهم ..

وعلا صوته بالانفعال:

ــ عزلة الشعب الأرمني أفادته فى الاحتفاظ بشخصيته ..

قالت الأم:

ـ نحن نحرص على الزواج فيما بيننا ..

قلت بعفوية:

ـ لماذا؟

ـ هذا ما يحدث ..

قال الخواجة أندريا:

ـ ربما لحفظ التواصل العرقي بين أبناء الأرمن!

ـ وحالات الزواج من غير الأرمن؟

ـ تصرف لن يدخل صاحبه النار .. لكن هذه هي عادة الأرمن!

كانت نورا تتجه بنظرتها ناحية البحر. خذلني الحدس ما إذا كانت قد استمعت إلينا ..

تحدث الأب عن الشعور بعدم الأمان الذى بدّل عادات الأرمن. تحايلوا على الأتراك، فارتدوا ملابسهم. وضعت النساء البراقع على الوجوه. تزوجت الفتيات فى سن مبكرة. تحدث عن تكيف الأرمن – بعاداتهم وتقاليدهم – مع المجتمع المصري، وإن لم ينصهروا فيه. ظلت لهم سلوكياتهم التى يحرصون عليها ..

قال الخواجة أندريا:

ـ من الناحية النظرية نحن لسنا أجانب .. كنا رعايا الدولة العثمانية..

وأشار إلى صدره بأصابعه المضمومة:

ـ أنا شخصياً دفعت البدلية ..

ثم فى صوت هامس، كأنه يخاطب نفسه:

ـ أظن أن الكنيسة الأرمنية كان لها دور فى احتفاظ الأرمن بقوميتهم..

وركز عينيه فيما لم أتبينه:

ـ آباء الكنيسة هم قادة الشعب الأرمني خارج بلاده ..

ووضع يده ـ بود ـ على كتفي:

ـ أنا دائم التردد عليها، ولى فيها صداقات ..

تحدث عن نادى "ديكران يرجات" بالإبراهيمية. أقدم ناد أرمني فى مصر. قال إنه يقضي فيه أوقات فراغه ..

قالت نورا:

ـ أنا وأخوتي أعضاء فى نادي سموحة!

تحدث الخواجة أندريا عن مواطنة الدرجة الثانية التى عومل بها الأرمن فى بلادهم: عدم قبول شهاداتهم فى المحاكم، منعهم من حمل السلاح، إلزامهم بدفع الجزية ..

قال:

ـ لاحظت أني والمدام وحدنا نعرف ماذا جرى، فشجعت نورا على وضع رسالتها ..

وتلون صوته بحزن:

ـــ حتى الولدين لا يعرفان شيئاً عن أرمينية، ولا عن الأرمن ..

وأغمض عينيه، وهز رأسه:

ـــ هما مصريان ..

قلت:

ـــ هل هذا خطأ؟

ـــ الخطأ أن أنسى جذوري!

وعاد الانفعال إلى صوته:

ـــ أرمينية هى الصورة الأولى للوطن!

لاحظت أن أفراد الأسرة يتحدثون بلغة أجنبية ـــ هى اللغة نفسها التى يتحدث بها الدكتور جارو ونورا. أدركت أنها الأرمنية ـــ لا يغيرونها إلا إذا كنت مشاركاً فى المناقشة.

التقط الخواجة أندريا ملاحظتي. قال:

ـــ حاول الأتراك محو لغتنا، وحاولوا قتل عاطفتنا القومية، لكنهم لم يفلحوا ..

وغمز بعينه اليسرى:

ـــ كما ترى، نحن نحتفظ فى المهجر بلغتنا ومشاعرنا القومية.

***

سحب الخواجا أندريا الناى من الحائط. قال:

ـــ أنا أجيد استعمال الناى ..

ثم وهو يمسد الناى براحته:

ـــ تعلمت على يد أمين بوزارى أشهر عازفي الناى القدامى ..

أدركت من إغماض عينيه، وانهماكه فى العزف، أنه قد استغرق فى حالة حنين. لمحت فى عينيه الدمع، بعد أن أتم العزف وأعاد الناى إلى موضعه ..

قلت مداعباً:

ـــ أين كنت يا خواجة أندريا؟

اكتفى بهز رأسه. ظل صامتا.

قالت نورا:

ـــ هل تريد سماع أغنية أرمنية؟

عزف عليه، وغنت نورا بكلمات أرمنية، لم أفهمها، لكن صوتها بدا جميلاً ..

قالت:

ـــ هل أجيد الغناء؟

قلت:

ـــ جداً ..

قال الخواجة أندريا:

ـــ حتى الثالثة من عمرها تقريباً كانت نورا تتكلم بالأرمنية، ثم حرصنا على أن تقتصر أحاديثنا أمامها على العربية ..

ثم وهو يربت خدها:

ـــ هى الآن إسكندرانية تماماً ..

قلت لمجرد أن أتجه إليها بالسؤال:

ـــ لاحظت أن معظم أسماء العائلات الأرمنية تنتهي بحرفى "يـــان" ..

مطت شفتيها، وقالت:

ـــ لم ألحظ الأمر ..

وأدارت خصلة الشعر حول إصبعها:

ـــ ربما لأن المقطع "يـــان" فى ختام معظم الأسماء يعادل ياء النسب فى اللغة العربية ..

وقطعت الصمت الذى حل فجأة:

ـــ تعال نجلس فى حجرتي ..

السرير الخشبي الصغير فى جانب الباب، تعمدت ألا ألتفت إليه. الأنتريه الأسيوطي ـــ كنبة وكرسيان ـــ ظهره إلى النافذة المطلة على الشارع. المكتب الصغير لصق الجدار، فوقه آلة كاتبة، الكومودينو من خشب الزان، تعلوه مكتبة ذات ثلاثة أرفف بضلفتين

من الزجاج، وإلى جانبه ما يشبه الدولاب الصغير، أسفله ضلفة مغلقة، وأعلاه أدراج مفتوحة صفت فيها اسطوانات. صف فوقه تماثيل صغيرة من الصلصال، لمجموعة عازفين تختلف الآلات التى أمسكوا بها. على الأرض فروة خروف فرشت كسجادة. علقت على الجدران صور عائلية، وجوه، وصور زفاف ..

لم تكن المكتبة مقتصرة على الكتب التاريخية. ما تطلبه فى إعداد رسالتها. تلاصقت قواميس بالعربية والفرنسية، وكتب فى السياسة والاقتصاد، وأعداد من روايات الجيب ..

ـــ قراءة للدراسة أم لمجرد المعرفة؟

تكلمت عن مصادر الرسالة ومراجعها. فرض التنوع عليها أن تتقن الأرمنية والعربية والفرنسية، وتحاول فهم التركية والإنجليزية والروسية. الكتب والصحف والمخطوطات والرسائل والوثائق لا حصر لها، مطبوعة وغير مطبوعة. مذكرات وذكريات وبحوث ولوائح وقوانين ومراسيم ومراسلات وتقارير وألبومات مصورة. حتى دفاتر وفيات المطرانية الأرمنية التى لم يسبق نشرها، عادت إليها. تتعرف على أسماء النازحين، والمدن التى نزحوا منها، والمدن التى استقبلتهم فى أثناء النزوح. حتى برامج الحفلات الاجتماعية والفنية والثقافية توضح المشهد فى خلفية الصورة. همها أن تحسن القراءة والمتابعة والفهم، والتوصل إلى النتائج الصحيحة..

التقطت عنوان كتاب "تاريخ الدولة العلية" لمحمد بك فريد. حدست أنه كان للخواجة أندريا من صفرة الورق، وغلبة خطوط القلم الحبر فى دوائر وتقاطعات وتشابكات .

قلت:

ــ هذا الكتاب كان بداية اهتمامى بالكتب السياسية. اشتريته من مكتبة بالعطارين ..

أكدت حدسى:

ــ حصلت عليه من أبى. به معلومات عن دولة الخلافة ..

وتنهدت:

ــ كنت أتوقع من الدكتور جارو فائدة أكثر ..

ــ أتصور أن هذا ما حدث ..

ــ كرر وأغفل تواريخ مهمة ..

وهزت كتفيها:

ــ لعله تقدم العمر!

ــ ألا يوجد من تستكملي عنده المعلومات التى تطلبينها ..

ــ عرفت من أبي أنه هو الوحيد الذى شهد المذابح ..

شردت. اتجهت عيناها إلى نقطة غير مرئية:

لما بدأت فى الاستماع إلى أحاديث الدكتور جارو عن أرمينية. لم أكن أعرف أين هى، ولا الظروف التى تعيشها بعد أعوام التهجير. ثم عرفت ما كان غامضاً، أو ضبابياً، فى انشغال نورا برسالتها. أبحث عن مراجع للرسالة فى مكتبات العطارين، أقرأ ما تكتبه من بطاقات، أستوضح ما لا أفهمه. أكتفي بالإنصات وهى تتكلم، كأنها تتجه بكلماتها إلى أفق البحر أمامنا ..

فى لحظة ــ لا أذكرها ــ تبينت أني لا أبحث فى تاريخ مذابح الأرمن. أنا أبحث عن جذوري. نشأتي فى الإسكندرية. لكن أبي وأمي قدما من مدينة أخرى، من وطن آخر.

منذ بدأت الإعداد للرسالة. القراءة وتجميع البطاقات. داخلني شعور أني أختلف عن زملائي فى الكلية، ومن أعرفهم بعيداً عن أسرتي. حتى الملامح، تنبهت إلى أنها تختلف عن ملامح من أعرفهم من الأرمن. لاحظت أني بدأت أطيل النظر، وأتأمل. ربما طرحت المقارنة. لم أدرك ــ على وجه التحديد ــ متى استقر شعوري بأني أنتمي إلى وطن ــ لم أره ــ يبعد عن الإسكندرية بآلاف الكيلومترات.

تحدثت عن قراءاتها فى التاريخ والسياسة. ترددها على الأتيلييه، وعلى تياترو محمد علي، تشاهد عروض الفرق الموسيقية والباليه والأوبرا. حضورها للحفلات الموسيقية فى نادى ديكران يرجات. حبها لأعمال رينوار وماتيس وشاجال وبيكاسو ومونيه. رحلاتها خارج المدينة مع طلاب الجامعة. ممارستها لرياضة المشى على رصيف كورنيش الميناء الشرقية.

قلبت فى أدراج الدولاب الصغير. أوبرات كارمن وعايدة وشهرزاد ودون جوان. سيمفونيات لبيتهوفن وشوبان وموزار. مقطوعات كلاسيكية لڤيردى وكليمنتي ..

قلت:

ـ هل تستمعين إلى أغنيات مصرية؟

حدجتني بنظرة دهشة:

ـ أحب أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد ..

استطردت فى تنبه:

ـ وأحب ألحان سيد درويش.

ثم وهى تهز كتفيها:

ـ صوته لا يعجبني!

ومالت بفمها على أذنه:

ـ هل أسمعك شيئاً؟

سحبت من المكتبة الصغيرة كتاباً منزوع الغلاف، مهترئ الصفحات. أعفتني من تخمين اللغة التى كتب بها فى قولها:

ـ هذا ديوان بالأرمنية ..

ـ هل تجيدين الأرمنية؟

ـ طبعاً ..

ـ لكنك من مواليد الإسكندرية ..

أمنت بهزة من رأسها:

ـ وتخرجت فى مدرسة راهبات الأرمن الكاثوليك قبل أن أدخل الجامعة ..

وعلا صوتها فى تذكر:

ـ كيف أقرأ وثائق الرسالة لو لم أتقن اللغة التى كتبت بها؟

وبدأت فى القراءة ..

استعارت صوتاً أضاف عمقاً إلى رقة صوتها:

"ترى إلى أين تحملين يا روحي المعذبة
صليبك الخشبي الأسود؟
أثمة جمجمة جديدة لكى تصعدى فخورة
حيث ينظر الجميع إلى إكليلك المضيء
بحب جارف؟
هل أنت مثل يسوع تصعد الجبل؟
أم أنت مجرد لص حكم عليه بالموت؟
وهل كل إنسان هو بيلاطس
الذى يغسل أمامك يديه؟

أى إكليل مضى؟

وكيف تصعدين يا روحي

طوعاً فى طريق الآلام؟

وأنت لا تعرفين حتى نفسك

إن كنت يسوع أم يهوذا؟

هل لديك يا روحي ميزان دقيق حاسم

كى تزني هذا الفكر الطليق

فى انتصاف الليل الحالك لعذابك الأليم ؟ [1]

لم ألحظ انقضاء الوقت حتى بدت الشمس قرصاً أحمر فى نهاية الأفق. شدنا الحوار. أسأل وتجيب، تسأل وأجيب. نتأمل، ونبدى الملاحظات، من شرفة غرفتها ــ حركة الحياة فى طريق الكورنيش.

---

[1] قصيدة للشاعر الأرمني يغيشي تشارنتس (١٨٩٧ ــ ١٩٣٧) ت: د. ڤاروچيان كازانچيان. صياغة شعرية: محمد إبراهيم أبو سنة.

ــ ١٠ ــ

أشارت نورا بيدها إلى شارع توفيق ..

قلت:

ــ مظاهرة ..

ــ لماذا؟

ــ لألف سبب ..

ثم وهى تصلح بأصابعها من فوضى شعرها:

ــ اتهم النقراشي الإنجليز فى مجلس الأمن بالقرصنة، وعاد ليمارس القهر على المصريين.

كنا واقفين على باب مكتبة دار المعارف. صحبتها لشراء مراجع، واشتريت كتاب محمد خطاب "المسحراتى" ..

اعتدت أن أقضي ساعات فى مكتبة كلية الآداب، فى البناية المطلة على شاطئ الشاطبي. أتشاغل بقراءة ما أشعر أنى سأفيد منه فى دراساتي. على الجانب المقابل من الطاولة الخشبية المستطيلة، اللامعة. تضع نورا المراجع أمامها. تسجل فى بطاقات ما ترى أنه يفيدها فى رسالتها. تومئ برأسها، دلالة أنها تستعد للانصراف. أسبقها إلى الباب ..

خلفت المظاهرة شارع توفيق. اتسعت مساحتها باتساع ميدان محمد على. انجذبنا نحو الهتافات والزحام. سرنا فى قلب المظاهرة. لم نعرف إلى أين تتجه. اندسسنا فيها، التصق كل منا بالآخر، ورحنا نردد هتافات

كان الشاب فى مقدمة المتظاهرين يرددها، ضـد الصـهيونية والولايـات المتحدة، وبريطانيا.

أرنو بجانب عينى إلى نورا. أشعر أنها قـد اسـتغرقت تمامـاً فـى المظاهرة، والهتافات، وتكوير قبضات الأيدي، وتحـدي الخطـر. يعلـو صوتها بالهتاف، وإمارات النشوة تكسو ملامحها، وتخبط الأرض بقدميها، وتلوح.

علا صوت الشاب ــ فجأة ــ بهتافات غير التـى كـان المتظـاهرون يرددونها وراءه: يسقط ملك النساء والحفاء .. لا ملك إلا الله .. فاروق يـا نور العين .. أمك مرافقها اتنين .. على ماهر واحمد حسنين.

لم أفكر ــ لحظة ــ فيما علا به صوت الشاب. حتى الهتافـات التـى رددتها وراءه، لم أتدبرها، ولا تنبهت إن كنت قد استمعت إليها من قبل، أم أنها كانت وليدة اللحظة. مزق الشاب ــ فى مقدمـة المظـاهرة ــ العلـم الأمريكي، وأحرقه.

عكس التصفيق وترديد الهتافات، تأييد المطلين من النوافذ، والـواقفين فى المقاهي، وعلى أبواب البيوت والأرصفة.

هدأت المظاهرة فى اقترابها من شارع فرنسا. لاحت أمام قسم المنشية قوات بوليس ازدحم بها الشارع، وأقامت الكردونـات. خفتـت أصـوات المتظاهرين وهى تهتف بالنشيد "بلادي بلادي فداك دمي". تلفتوا يبحثـون عن قطع الحجارة، وأيدى العساكر تحمل الهـراوات والبنـادق، والجيـاد تجرى وسط الجميـع، لا يستطيـع حتى العسـاكر ضبـط خطواتـها.

اجأ العساكر إلى كعوب البنـادق، يضـربون ويضـربون، لا يتحـرون المواضع التى تتجه إليها، ولا تشغلهم الآثار الدموية ــ وربمـا القاتلـة ــ التى تحدثها. اختلط وقـع الهتافـات، وتماسـك الأيـدى، والضـربات، الصرخات، والصهيل، والقنابل المسيلة للدموع، والدماء النازفة ..

***

جاءنى صوتها فى التليفون ــ بعد غيبة أيام ــ فاتراً:

ــ إن أردت، يمكن أن نلتقي فى موعدنا.

لم تشر إلى المكان، لأني كنت أسبقها إلى الكورنيش الحجـري أمـام مدينة الملاهي بالأزاريطة. ربما سرنا إلى السلسلة، أو إلى قبالـة تمثـال الخديو إسماعيل، أصحبها إلى مكتبة كلية الآداب. مرتان، التقينا ــ خارج البيت ــ فى ميدان أبي العباس، وعلى شاطئ الأنفوشـي. زرت معهـا ــ للبحث عن مراجع ــ المركز الثقافي الأمريكي بشارع فؤاد.

تكلمت عن الموعد، ولم تحدد المكان.

حدست أنها تقصد الموضع الذى اعتدنا اللقاء فيه.

سرنا فى اتجاه بحري. خلفنا مرسى القوارب فـى الميـناء الشـرقية، والشارع المفضي إلى معهد الأحياء المائية، وقلعـة قايتبـاي، ومسـاكن السواحل، وكومات الحجـارة والـردم تتسـع بهـا مسـاحة الأرض أول الأنفوشي، وورش المراكب. تناهي أذان العصر من مسجد طاهر بك أول شارع الحجاري.

أمسكت بساعدي. ساعدتها على القفز – بأقدامنا الحافية – على الكورنيش الحجري – قبالة قصر أم البحرية ذى الطابع الشرقي والطوابق الثلاثة – إلى داخل الشاطئ. إلى اليسار ثكنات الحرس الملكي، وقصر رأس التين، وإلى اليمين البيوت التى تآكلت واجهاتها بملح البحر، وفى الأفق تعلو الجزيرة الصغيرة.

مد الموج يلامس الرمال. تضوى لحظات، ثم تعود الرمال إلى انطفائها، بامتصاصها للماء، وبحرارة الشمس ..

يترامى صوت ارتطام الأمواج بالصخور، أسفل الكورنيش الحجرى، ترافقه صيحات النورس، وهبات الريح المندفعة من ناحية الشمال ..

جلست فوق الكورنيش. تحتضن ساقيها، وترنو إلى الأفق. يترامى صوت تكسرات الأمواج. وثمة بقايا طحالب وأعشاب وقناديل بحرية، واندفعت كابوريا نحو حجر داخل الرمل ..

انداحت دفقة هواء مفاجئة. طار أسفل فستانها، فظهرت ساقاها وما فوق ركبتيها. تملكتني رغبة أن ألمس البشرة الوردية، الناعمة ..

لاحظت أنى أختلس النظر، فشبكت يديها على الركبتين، ونطق التوتر فى ملامحها ..

قلت لمجرد أن يدور حوار:

ــ لكل إنسان حلم .. وحلم هذا الصياد تركز فى السنارة التى تنتهي بها القصبة .. إنها وسيلته بالطعم الملتف حولها لاجتذاب السمك!

قالت:

ــ قرأت حكاية عن صياد طلعت شبكته بعروسة بحر، عرضت عليه أن يطلق سراحها لقاء مساعدته فى الحصول على ما تضمه أعماق البحار من كنوز وثروات ..

قلت وأنا أغوص فى زرقة عينيها:

ــ عروستي لا تعادلها كنوز الدنيا كلها!

كنت أرى فى عينيها أسئلة كثيرة، وإن لم تجرؤ على مصارحتي. أدركت أنها تخفي وراء الابتسامة التى تملأ الوجه ما تعانيه. راعيت ميلها إلى الصمت. لم أشأ أن أسألها فى ما قد لا تجيب عنه ..

ــ أين كنت؟

ــ لم أترك حجرتي ..

ــ لماذا؟

عانيت ارتباكاً، فتنقلت نظرتي بين الرضوض والكدمات الزرقاء فى ساقها، والقوارب التى تصيد المياس فى خليج الأنفوشي. رفعت الجونلة ــ بعفوية أربكتني ــ إلى ما فوق الركبتين، وأشارت بيدها:

ــ زميل فى الدراسات العليا ظن نفسه كازانوفا ..

قالت إنها لم تبح لأحد بذلك السر. اختصتني بما أطالت كتمه فى نفسها. حتى نظرات الخواجة أندريا القلقة، وأسئلة الأم، اكتفت أمامها بالصمت.

ما حدث أكبر من أن تحاول استعادته: حصاره لها فـــي الشـــقة المغلقـــة. نظرته الشهوانية، المتوعدة ..

قال من بين أسنانه:

ـــ لماذا أنت هنا؟

ـــ لنذاكر معاً ..

ـــ فقط؟

هزت رأسها:

ـــ فقط ..

ـــ هل هذا كل ما تملكه فتاة أرمنية ..

أدركت ما يفكر فيه :

ـــ أولاً .. أنا مصرية ..

ورمته بنظرة ساخطة:

ـــ ثانياً .. هل الأرمن يختلفون عن بقية البشر؟!

التف ساعداها ـــ بتلقائية ـــ حول وجهها. تتقي الصفعات التى فاجأهـــا بها، صفعات قاسية، رافقتها عبارات قاسية، وشتائم. لف شـــعرها حـــول قبضته. اجتذبها. طرحها علـــى الأرض. ظـــل يوجـــه إليهـــا اللكمـــات والصفعات، والشتائم ..

ـــ تملكني شعور أنه يريد قتلي!.. يضرب ليقتل لا ليؤذي!

ـــ لماذا؟

وهى تهز راحة يدها:

ـــ لا أعرف .. لا أعرف ..

وأنا أغالب التردد:

ـــ آسف .. لكن هل كان يتوقع شيئاً؟..

شوحت بيدها:

ـــ لا أعرف ذلك النوع من التوقعات!

وغامت فى عينيها سحابة دامعة:

ـــ أستعيد الموقف فلا أجد ما يبرر فعلته إلا أنه مجنون ..

سكت قليلاً، ثم قلت:

ـــ هل رويت ما حدث للأسرة؟

ـــ النتائج السلبية سأتحملها بمفردى!

داخلني شعور أنى أراها للمرة الأولى. ليست هى الباحثة التى ألتقي بها فى عيادة الدكتور جارو، ولا الصديقة التى تصحبني إلى بيـــت أســـرتها، ومكتبة كلية الآداب، وكورنيش الشاطئ، بل ولا حتى الفتاة الجميلة بشعرها الأصفر، وعينيها الزرقاوين، وأنفها الصغير. هذه فتاة أخرى. تهبني ثقتها، تحدثني عن معاناتها، وما كتمت روايته.

* * *

طارت بي الدنيا ـــ رغم تأثري ـــ لأنها باحت لى بالسر الذى تحـــتفظ به لنفسها. بما حرصت ألا ترويه لأحد ..

لماذا اختارتني من بين كل الذين تعرفهم لتحكي لى أسرارها؟

أثق أنها تعرف كثيرين. تتناثر فى كلماتها أسماء كثيرة، وأحداث شارك فى صنعها من لا أذكرهم، لكنهم ــ بالتأكيد ــ يملأون ذاكرتها ..

هل هى صادقة فى تحذيرها لى؟. قالت: إنى إذا أعدت رواية الأسرار التى ائتمنتني عليها، فستكون الأسرار قد جاوزت اثنين، فعرفها ثالث؟ .. وانغماسها فى الأحاديث الهامسة مع العجوز، ألا يسرق ما تتصور أنها كتمت صدرها عليه؟

أيقنت ــ فى لحظة لا أذكرها ــ أني لم أعد أعرف أحداً، ولا شيئاً، فى الدنيا سواها. ألتقي بالآخرين، أحادثهم، أسير فى الشوارع، أقف على شاطئ البحر، أتلقى الرسائل من القرية، أحيا كما يحيا الناس. لكن صورتها وحدها هى التى تشغلني.

ما نتبادله فى أحاديثنا يشي بالصداقة، لكنه لا يتطلع إلى تسمية، أو تسميات، أخرى ..

الحب!..

شعرت أنى أحبها. لا يشغلني فى هذا العالم سوى أن تكون لي. لا تشغلني القراءة ولا الكتابة ولا الآراء المؤيدة أو المعارضة، ولا فرص النشر، ولا عملي عند فيصل مصيلحي، ولا أى شئ. أن أكون محباً لها، محبوباً منها، هو ما يهمني. تهاوى جدار السر بيني وبينها، أعطى كل منا نفسه للآخر بالفضفضة، ورواية ما كان يعتبره شأنه الشخصي.

أنا أحبها.

أتصور أني أرى الحب فى عينيها. أثق أنها تبادلني الحب، وإن لم تهبني ما أحيا على توقعه: كلمة، أو إيماءة، أو نظرة ذات معنى ..

هل أحبتني؟!..

لم يغب شعوري، ولا شحب، ولا تخاذل، بأنها تضمر لى ما أسميه الحب، ما أضعه فى إطاره ..

خلت دنياى إلا منها: شعرها الأصفر، المتموج، على رأسها وكتفيها، وعيناها الصافيتا الزرقة، وأنفها الصغير، وشفتاها الرقيقتان كورقتي وردة، وقوامها الذى يستدعي معنى العافية. أصحو، وأنام، وأقرأ، وأكتب، وأسير، وأجلس، وأسأل، وأجيب، وأناقش، وأشاهد. لا تبرح ذهني. ربما ناقشتها ــ بيني وبين نفسي ــ فيما أكتمه فى داخلي، لا أقدر أن أواجهها به.

كانت تدير الفونوغراف فى حجرتها على أسطوانات لباخ أو موزار أو بيتهوفن. ترنو ناحيتي. تتأمل انعكاس الموسيقا في ملامحي. أحببت الموسيقا الكلاسيكية لأني أحب نورا. تنقلني إلى أجواء تختلط فيها عيناها، وابتسامتها، وخصلة الشعر الملتفة حول إصبعها، والهارموني المنساب فى عالم بلا زمان ولا مكان ..

فاجأتني بالقول ــ ذات مساء ــ ونحن نفترق فى محطة الرمل ــ :

ــ لا إله إلا الله.

قلت بعفوية:

ــ محمد رسول الله.

تنبهت ــ فى اللحظة التالية ــ إلى ما قالت ..

اعتدت ــ فيما بعد ــ قولها: بسم الله الـرحمن الـرحيم .. اسـم الله عليك.. ودين النبي .. وحياة أبو العباس ..

تمنيت أن نتبادل ــ ذات يوم ــ كلام المحبين. يصعب أن أحدسه معها. ماذا أقول؟ ماذا تقول؟ لكنه لابد أن يختلف عن كلام المظاهرات، وذكريات الدكتور جارو، وقضايا السياسة، ومراجع رسالة الماچستير ..

عدنا إلى السير فى ميدان المنشية ..

بدا الميدان صامتاً، ساكناً، يختلف عن الصورة التى كان عليهـا يـوم الصدام بين المتظاهرين وقوات البوليس. لم يعد إلا قطع حجارة متنـاثرة، وفروع أشجار، وبقع دماء داكنة ..

صحبتني إلى مكتب البريد الرئيسي بالمنشية. وضعت حوالة الجنيهات الخمسة فى داخل المظروف. كتبت عليه "السيدة الفاضلة والدة صلاح بكر ــ الصوامعة ــ طهطا". أرفقت بالحوالة كلمات، لمّحت فيها إلى أن العمل قد يأخذ وقتي فى الفترة القادمة.

كيف تستقبل أمي زواجي من نورا ، لو أن أميرتي وافقت؟

حياتها تختلف عن حياتنا. إنها جميلة بارك الله لك فيها. هى ليست من دينك. هل تعرف أهلها؟ هل تقبل العيش بعيداً عن الإسكندرية؟

حتى لو عارضت أمي، فإنها ــ هذا هو ما اعتدته ــ ستوافق، وتبارك، وتحب نورا مثلما أحببتها ..

ــ ١١ ــ

بدت العيادة ممتلئة بالمترددين. على غير العادة. هـو الوقـت الـذى خصصه الدكتور جارو لاستقبال نورا، ولاستقبالي ..

لمح وقفتي المترددة:

ــ ادخل ..

وأشار إلى صناديق كرتونية صغيرة فوق المكتب:

ــ مستوصف سوق السمك القديم عاجز عن استيعاب طالبي التطعـيم من الكوليرا ..

ونفث تنهيدة:

ــ أحاول القيام بدور ..

ونقر بإصبعه على جبهته كالمتنبه :

ــ خذ المصل أنت أيضاً ..

كنت أجلس فى لقاءات تسجيل ذكرياته لنورا فى فترات متباعدة. مجرد الحرص أن تظل صلتي بالدكتور جارو، وصداقتي له. ألتقي بنورا بعيـداً عن العيادة. فى بيتها، أو فى أماكن نختارها، أو تختارها المصادفة. صار العالم كله ملكاً لنا ..

اعتدت من العجوز أحاديث المرارة. يقتحمه الشعور بأنه وحيد. تغيب البواعث، وإن بدت الوحدة قاسية. المرء يولد، يتعلم، يعمل، يأكل، يشرب، يتزوج، ينجب، يحب، يكره، يشيخ، يمرض، يموت..

لماذا يولد أصلاً؟ لماذا لا يموت من البداية؟

صارحني أنه ظل كارهاً لمصر أعواماً طويلة، حتى ألف الأمكنة والبشر، وإن بقيت صورة واحدة، ثابتة، لا تختلط بغيرها من الصور. يتجه ـ بالحنين ـ إلى مدن وأماكن فى أرمينية. يذكر الأسماء. لا أعرف موضعها على وجه التحديد. لا أعرف حتى كيف أنطقها جيداً. أكتفي بالخيال فى تصور المدن والبنايات والميادين والشوارع والجبال، والناس الذين افترق عنهم بتشريد المنافي ..

ـ كان الموقع هو مشكلة أرمينية مثلما كان مشكلة مصر. أرمينية ملتقى الطرق التجارية والعسكرية بين أوروبا وآسيا .. ومصر ملتقى الطرق بين أوروبا وإفريقيا وآسيا .. لذلك تعددت الغزوات للبلدين منذ التاريخ القديم ..

ولاحظت ارتجافاً فى شفته السفلى:

ـ الأحلام بعيداً عن الوطن مجرد حالة مرضية ..

وعكس وجهه ما يعتمل فى نفسه من انفعالات:

ـ كنت أعد نفسي للعودة إلى أرمينية لولا الوباء الذى فاجأ الجميع ..

حدست أن الرجل يعاني: هل يستعيد بالتطعيمات ما رواه عن دوره فى لماذا جرحى النفى من بلاده؟

بدا الحدس يقيناً، لما التفت ناحيتي في وقفته أمام الطابور:

ـ منذ قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين لم يعد من السهل توقع ما سيحدث.

اكتفيت بهزة من رأسى ..

قال:

ـ منذ ما يقرب من ربع قرن أنهت الحكومة العثمانية قضية الأرمن رسمياً. أعلنت أنه لم يعد للأرمن وجود فى دولة الخلافة!

وهز سبابته:

ـ تحدث قرار تقسيم فلسطين عن العرب واليهود. أما معاهدة لوزان فى ١٩٢٣ فقد خلت من كلمتى أرمينية والأرمن ..

وداخل صوته تهدج:

ـ لم يعد للأرمن ادعاء مجرد الحق فى الحياة ..

وتبدّلت نبرة صوته:

ـ أخشى أن ذلك ما يعدونه للفلسطينيين!

ـ ١٢ ـ

أذهلني التماع عينيها بالمفاجأة. أدركت أنها لم تكن تنتظر هذا العرض، وأن العلاقة بيني وبينها ترفض الارتباط الأبدي ..

رشقت فى عيني نظرة زاجرة:

ـ أنا لا أصلح لك ..

ـ هذا ما أقرره أنا. المهم هو: هل أصلح أنا لك؟

لم أتوقع ردها. لم أتوقع أنها سترفض. غابت الأحاديث عن المستقبل، لكنه بدا لي فى الأفق القريب. يضمنا معاً، لا تهمله، ولا أتخلى عنه..

كنت قد صحبتها إلى حديقة الحيوان، تمشينا فى حديقة أنطونيادس، انشغلت بقراءة الدوريات فى مكتبة البلدية أثناء نقلها ملاحظات من المراجع، خلعت حذاءها وتقافزت على رمال ستانلي، أرهفنا السمع لصوت ارتطام الأمواج بجدران قلعة قايتباى. تأملنا الصيادين يضعون الحبال الطويلة على أكتافهم، يجرّون ـ فى سيرهم المتباطئ على الكورنيش الحجري والرصيف ـ شبك الجرافة إلى موضع إفراغه من الأسماك. زرنا المتحف اليوناني والروماني، ومقبرة اللاتين. أطلنا متابعة مواكب الزفاف فى ميدان المساجد. تمشينا في المسافة بين تمثال الخديو إسماعيل والسلسلة. استعدنا وقفة نابليون فى هضبة عامود السواري. ألحظ ما لم أتصوره فى بداية تعرفى إليها. طالعتني بإلمام واسع فى السياسة والتاريخ

والاقتصاد. حتى القصص والروايات كانت تستشهد بأحداثها. ربما استعادت أبياتاً من الشعر للتدليل على رأيها. لم تكن معلوماتها تقتصر على الحياة فى أرمينية، التاريخ والبشر والمعتقدات والعادات والتقاليد. تتكلم فى كل ما تستدعيه المناقشات. تتسع رواياتها عن الحكايات والوقائع التاريخية والأماكن والأرقام والأحداث.

التقينا فى ميدان محطة الرمل بشقيقها يعقوب. تبادلت نورا معه كلمات سريعة، وأومأ لى بالتحية، ومضى. اعتذرت عن عدم تلبية دعوتي بمشاهدة فيلم فى سينما أمير، بطلاه دوريس داى وروك هدسون..

لاحظت أنها كانت تستعيد ما يرويه الدكتور جارو من صور. تتخيلها بالعبارات التى يتحدث بها: الطقس والجبال والسهول والوديان والميادين والشوارع والمتنزهات وسلوكيات الحياة. أعرف أنها ولدت فى الإسكندرية. لم تغادرها إلى خارج مصر. مساحة الإسكندرية، ما يسهل أن تتحدث عنه ستة وعشرين كيلو متراً، المسافة بين قصر رأس التين وقصر المنتزة. ربما جاوزت المسافة إلى أبو قير، أو إلى ناحية الغرب فى المكس. لكن أحاديثها تقتصر على المساحة التى تشكل مدينة الإسكندرية، المدينة التى يغمض أهلها أعينهم على قسماتها، يتحركون فى الشوارع والميادين، ويتجولون بين الأسواق والبنايات.

قلت:

ـ قد لا تصدقين .. لكننى كنت على ثقة أننا سنلتقي ذات يوم.

ـ أذكر أن لقاءنا الأول كان فى عيادة الدكتور جارو ..

ـ التقيت بك فى خيالي عشرات المرات، وتوقعت أن يحدث اللقاء فى الواقع ..

ـ مجاملة لا بأس بها، لكنني لا أحب المبالغات الرومانسية.

وواجهتني بنظرة متسائلة:

ـ لماذا أنا؟

وأدارت خصلة الشعر بإصبعها:

ـ نحن نختلف حتى فى الديانة ..

ـ لكننا نتفق فى ميل أحدنا إلى الآخر ..

أردفت فى تحمس:

ـ طبيعة الحب أنه لا يعترف بالعقبات ..

ـ الحب ليس كل شئ فى حياتنا. هناك أشياء أهم!

ـ حتى الأشياء الأخرى، إما أن نحبها أو نكرهها ..

استطردت فى ثقة مفتعلة:

ـ الحب أو الكره .. أليس كذلك؟

قالت:

ـ لو أني أحيا فى أرمينية، قد تبهرني شخصية الرجل الشرقى، ما يغلف حياته من الغموض والسحر، لكنني أحيا فى مصر .. أنا مواطنة مصرية ..

قبضت على حقيبتها، ونهضت واقفة.

_ ١٣ _

مذبحة دير ياسين ..

بدت شاغلاً للناس فى كل مكان: ٢٥٠ عاملاً فلسطينياً كـانوا عائـدين وقت الغروب من عملهم. تربص لهـم أعضـاء الأرجـون وحصـدوهم بالرصاص.

حضرت مؤتمراً، مزق فيه الطلبة صور الملك فاروق، وأشعلوا فيه ا النيران. أول هجوم سافر ضد الملكية. لحقتهم فى مظاهرة تهتف: لا ملـك إلا الله.

قال الدكتور جارو:

_ ما يحدث فى فلسطين ليس أول إبادة يشهدها هذا القـرن. لا تـنس الإبادة العرقية التى قام بها الأتراك ضد الأرمن.

ونطق الأسى فى صوته:

_ اللجوء إلى الإبادة يأتي عند الشعور بخطر السكان الأصليين. هذا ما حدث فى أمريكا، وفى أرمينية، وهو ما يحدث فى فلسطين ..

وطرقع بأصابعه:

_ هدف مذبحة دير ياسين _ كما أرى _ دفع الفلسطينيين إلى الفـرار بحياتهم خارج بلادهم ..

وأسلم نفسه إلى شرود :

ـ هذا هو ما أراده الأتراك بمذابحهم ضد الأرمن ..

واتجه ناحيتي بنظرة متسائلة:

ـ هل تذكر ما رويته؟

أمنية يستعيدها، يكررها: أن يزاح الغموض عن حقيقة الإبادة العرقية للأرمن، الموت جوعاً، والضرب المفضى للموت، وعمليات الاغتصاب، والتشوه الجنسى. ومضت إمكانيات، ثم اختفت. بدت المسافة متسعة فيصعب تقريبها ..

قال:

ـ لليهود دور سلبي فى أوقات المذابح العثمانية للأرمن. أوكلوا إلى أنفسهم دور المرشدين عن الفارين من الإبادة ..

وبدا أنه يجاهد ليبدو صوته هادئاً:

ـ عُرف ـ فيما بعد ـ أنهم عرضوا على العثمانيين أثناء المذابح موافقة السلطان عبد الحميد على استيطان اليهود فلسطين مقابل التأثير على الإعلام الأوروبي والأمريكي ..

أتبين ـ فى رنة صوته ـ ما يعانيه. حتى لو كسا الهدوء وجهه. حتى الابتسامة الخافتة، المتكلفة، على شفتيه، أحدس ما بذله من جهد فى رسمها..

***

جاءني صوت نورا فى التليفون حزيناً، مرتبكاً:

ـ ألقوا القبض على الدكتور جارو ..

أغلقت السماعة دون أن أعرف من هم، ولا لماذا ألقوا القبض عليه؟

كان إعلان قيام دولة إسرائيل، وتحرك القوات العربية إلى فلسطين، محور أخبار الإذاعات والصحف ومناقشات المكاتب والمقاهى والأسواق. كان يتأمل ارتباكى من أخبار الاعتقالات التى امتدت إلى كل أحياء الإسكندرية. استقبل معتقل أبو قير المئات من المصريين واليونانيين والأرمن واليهود. أعانى الانتظار أن يطالعني ـ فى لحظة لا أتوقعها ـ من يحيط بساعدى وهو يقول: تفضل معي!

أطلت الوقوف أمام باب الشقة. لاحظت أمي أني أكتم ما يشغلها أن أبوح به. كنت أعاني ترقب المجهول. الخطر الذى لا أدرى بواعثه ولا ملامحه. أبتعد عن أمي، وعن نورا، وعن الحياة التى ألفتها. أدخل نفقاً تطمس الظلمة مرئياته ..

قلت:

ـ إذا تأخرت عن البيت لا تقلقي..

واتجهت للتساؤل فى عينيها:

ـ ربما أسافر خارج الإسكندرية ..

وهى تدير خصلة الشعر:

ـــ هل تخفي شيئاً؟

ـــ أبداً .. لكن إذا تأخرت سأترك خبراً عند فيصل مصيلحي في المكتب ..

أغلقت الباب خلفي، حتى لا تربكني بالمزيد من الأسئلة ..

فاجأني فيصل مصيلحي بتخوفه من دخول القوات العربية النظامية، بدلاً من قوات الفدائيين. الجيوش تعبير عن أنظمة فاسدة. أما الفدائيون، فهم يدافعون ـــ بيقين ديني ـــ عن بلاد الأقصى. استعاد قول الشيخ البنا للنقراشي: فلسطين فيها عصابات صهيونية، ونحن عصابات إسلامية، والعصابات يضرب بعضها بعضاً. إن انتصرنا فلمصر، وإن متنا دخلنا الجنة ..

قال:

ـــ للإخوان ست كتائب قبل إعلان الهدنة الأولى .. لماذا يجبرهم على قبول ما اضطر لقبوله؟

قال لى العجوز دون مناسبة:

ـــ لا شأن للحكومة بأصحاب الرأى .. لكنها تعتقل من ينضمون إلى تنظيمات معادية لها ..

قلت فى دهشة:

ـــ لماذا تخبرني بهذا؟

بدا أن الرجل واصل شروده، فلم يسمعني. كانت عيناه ـــ في الأيام الأخيرة ـــ دائمتى الشرود. كأنه ينفصل عما حوله، وأنه لا يراني في جلستي أمامه ..

أعدت السؤال ..

قال:

ـــ إذا نقل أحدهم آراءك فلا خوف. المهم أن تظل فى حدود ابداء الرأى ..

لم أعد أتردد على العيادة. لم أعد أسير فى اتجاه شارع إسماعيل صبري، ولا الشوارع المتصلة به. توقعت أنهم دخلوا العيادة لاعتقالي. إن لم يفطنوا إلى المنشورات، فلابد أن تثيرهم مقالات الصحف.

سابع يوم، وربما ثامن يوم، كانت نورا تنتظرني أمام المكتب:

ـــ لم يكونوا يقصدونك كما تصورنا ..

وافتر فمها عن ابتسامة باهتة:

ـــ ألقوا القبض على الدكتور جارو .. ثم أفرجوا عنه ..

لم أخف دهشتي:

ـــ لا صلة للرجل بالسياسة ..

ــ لعلها وشاية أو بلاغ كاذب ..

هزت رأسها مؤمّنة:

ــ حققوا معه، ثم أفرجوا عنه ..

أذهلني هدوؤه كأنه لم يعتقل، ولا تعرض للتحقيق، بكل ما ينطوي عليه من ملابسات. ظلت الابتسامة الهادئة على شفتيه، وإن تكثفت ــ في وجهه ــ خيوط توتر صامت ..

قال:

ــ البلد فى حالة حرب، وأنا أجنبي ..

هتفت بانفعال:

ــ أنت أكثر مصرية من بعض المصريين ..

ــ رأى أعتز به .. لكن الأمن لا يعرف التعبيرات الطيبة ..

أردف فى لهجة محايدة:

ــ هذا ليس وطني ..

وتلفت حوله كالمتحير:

ــ لم يعد يغضبني فقد أى شئ منذ فقدت أرمينية ..

ــ ١٤ ــ

ألقت نورا بكل ذاتها فى انشغالها بما يجري. تسأل، وتناقش، وتوافق، وتعترض، وتلصق الشعارات، وتردد الهتافات، وتوزع المنشورات، وتذوب وسط الجموع المتلاصقة، الهاتفة. لم تفاجئني تصرفاتها. أرمينية هى القضية التى اختارتها لرسالة الماجستير، الاحتلال والتهجير والقتل والتدمير.

يقتحمني الخوف من أن تجرفها أمواج المتظاهرين. تقع تحت الأقدام، فلا تملك الوقوف. تتقلص يدى على مرفقها، وأجتذبها ناحيتي.

بدت كأنها تخوض معركتها الشخصية، لا تشغلها النتائج، ولا تتطلع لأفق الخطر. حتى المصادمات بين العساكر والمتظاهرين، كانت تجتذبها، تثيرها، وتتابعها. تدخل معي فى مناقشات، تبدأ ولا تنتهي. أستعيد أسئلتها وآراءها فيما لم أتصور أنها تحدثت فيه. تدرك ــ لابد ــ أن الدكتور جارو والخواجة أندريا يرفضان اقترابها من العمل السياسي. تتلفت ــ بعفوية ــ كمن تتأكد أنه ليس بيننا ثالث. تسأل، أو تبدى الملاحظة. تتشابك الخيوط، وتختلط، وإن لم تجاوز مساحة الأحداث التى نعيشها. تفاجئني بالمعلومة أو الفكرة التى ربما لم أفطن إليها. أحداث من المشهد الثقافي والسياسي. أمر الملك بدخول الحرب بحثاً عن الشعبية، لم يخطر فى باله أنه سيخسر الحرب والشعبية. متطوعون من أوروبا الشرقية يصلون بطائراتهم للقتال إلى جانب اليهود. كان يجب على الدول العربية أن تساعد

الفلسطينيين على خوض معركتهم، ولا تحارب بالنيابة عنهم. تقتصر مشاركتها على المتطوعين. تظل الحرب فلسطينية يهودية، وليست عربية يهودية، فلا يكسب اليهود عطفاً لا يستحقونه. إذا لم تكن تعرف، فإن العالم كله مع دولة اليهود فى فلسطين، من أقنعته السياسة ومن أقنعته الرشوة. أنت تكتفي بقراءة الصحيفة العربية، وأنا أقرأ الصحف الأجنبية أيضاً ..

فاجأتني بالقول:

ــ مشكلة العرب أنهم يتعاملون مع اليهود باعتبارهم عصابات!

ــ هم كذلك بالفعل!

ــ لماذا إذن قبلوا الهدنة؟

ــ الأمم المتحدة هى التى قررت الهدنة.

قاطعتني:

ــ وهى التى أعلنت التقسيم، وهى التى احتشدت فيها كل الدول الكبرى لإعطاء فلسطين لليهود.

ــ إرادة المجتمع الدولي يجب أن تحترم!

ــ وخرق اليهود للهدنة .. ما معناه؟!

حدجتني بنظرة تتأمل الريبة التى لابد أنها نطقت في وجهي:

ــ أذكرك بأن العرب ضيعوا الأندلس بإهمالهم آخر قلاع الجنوب الأسباني ..

خلت حياتنا إلا من مفردات المظاهرة، والإضراب، والاعتصام، وتوقف المواصلات، والمنشورات، والعمال، والطلبة، والصهيونية، وفلسطين، وإيقاف الدراسة. إذا كانت الحكومات المصرية قد أخفقت فى حل قضية مصر أمام مجلس الأمن، فكيف نتوقع أن تحل قضية فلسطين؟ ما حدث فى دير ياسين يدل على أن اليهود يريدون طرد العرب من فلسطين، وليس مشاركتهم الحياة فيها. انشغل ملوك العرب بالحصول على قطع من تورتة فلسطين، بينما حصل اليهود على تأييد الشرق والغرب.. هل هى أسلحة فاسدة، أم قيادات فاسدة؟ من يدفع ثمن الخيانة؟

ألفنا المظاهرات، وهجمات عساكر البوليس، وضربات الهراوات، ودبشكات البنادق، وخراطيم المياه، والقنابل المسيلة للدموع، وإطلاق الرصاص فى الهواء. شاركنا المتظاهرين فى التقاط قطع الحجارة من الخرابات والبيوت المتهدمة والساحات، وفى قطع الأشجار، وانتزاع أعمدة النور، وإقامة المتاريس وسط الشوارع، وفى تقاطعاتها.

استقرت فى داخلى أشواق إلى أجوبة عن أسئلة، تشغلني دون أن تكتمل مفرداتها ..

***

فاجأني، أذهلني، ما فعلته نورا ..

قفزت إلى مقدمة سيارة واقفة إلى جانب الطريق. بدت بالتايير الكحلي المنسدل إلى ما فوق قدميها، أعلى من كل الرءوس المتلاصقة. هزت قبضتها، وهتفت بآخر صوتها: الاستقلال التام أو الموت الزؤام ..

كأنه مجموعة أصوات، تختلف عما اعتدته فى صوتها، وإن تآلفت الأصوات فى هارمونية اجتذبت صمت المتظاهرين. أعادت رفع قبضتها، وخفضها. هزتها فى الهواء ..

ردد المتظاهرون الهتاف: الاستقلال التام أو الموت الزؤام ..

أخذ الهتاف شكل الإيقاع المنتظم. تسارع. رددت البنايات المحيطة بالميدان أصداء الهتاف ..

أبطأت الخطوات، توقفت تماماً، لما ظهر عساكر البوليس يسدون الشوارع الرئيسية المتفرعة من ميدان محمد على وميدان المنشية. ثلاثة صفوف متراصة، يحملون العصى والمصدات الزجاجية. حول طريق السيارات إلى الكورنيش والشوارع المتفرعة منه. سدت كل المنافذ. بدت العودة إلى بحرى مستحيلة ..

اختلطت قطع الحجارة والهتافات، والعصى والهراوات وكعوب البنادق والدروع والخوذات ودخان القنابل المسيلة للدموع ..

تفرقت المظاهرة إلى مظاهرات صغيرة. لاذت بالشوارع الصغيرة، الجانبية. تبادلنا نظرات الحيرة. مددت يدى – بتلقائية – فأمسكت بذراعها، وسبقتها إلى شارع جانبي ..

سرنا صامتين ..

ملنا إلى انحناءات الشوارع الجانبية، لا نقصد شارعاً، ولا نتوقف لنتبين ما إذا كنا نعرف اتجاهنا. تصخب فى داخلي – حدست أن هذا هو ما كانت تعانيه – ومضات المظاهرة وهتاف نورا وضربات العساكر والدماء والصراخ. هدأت خطواتنا – بالطمأنينة – والكورنيش يطالعنا أمام قهوة المطري ..

دخل – دون تعمد – عالمي الذى اقتصر – منذ تركت عيسى أبو الغيط – على دراسات القضية المصرية، وقضايا وادى النيل، والقضية الفلسطينية. ثم الخروج فى مظاهرات، وعقد المؤتمرات، وحبي لنورا الذى يشبه سمكة يرفض الصياد جذبها!

ارتبكت للخاطر الذى راودني بأن أضمها إلى صدري. أقبل شعرها وجبينها وخديها وشفتيها. زاد فى ارتباكي مشيتها الصامتة، ونظرة — غير متأملة — تتجه بها إلى الأفق. وكان قوس قزح يتوسط الميناء الشرقية.

قالت:

— لم أتصور أني سأواجه هذا الموقف ..

وأنا أحدق فى وجهها الشاحب:

— هل أصبت؟

يبدو أن العسكري أشفق عليّ، فوجه ضربته إلى الشاب بجانبي ..

— من؟

— لا أعرفه .. شاب من المتظاهرين!

— مشاركة البنات فى المظاهرات قليلة .. لكنك الأولى فى قيادة المتظاهرين ..

وهى تستعيد ابتسامتها:

— لا أدري كيف جرى ما حدث.. الانفعال وحده دفعني إلى ما فعلت!

أردفت في عفوية:

— الانتماء جميل!

***

قال لى فيصل مصيلحي:

ــ أنت تسير فى زقاق مسدود ..

ــ لماذا؟

ــ علاقتك بهذه الفتاة لها نهاية واحدة، هى الفراق ..

رفع كتفيه فى نفاد صبر:

ــ ما معنى أن تحب فتاة لا أمل لك فى الزواج منها؟

ــ ليس عند أى منا موانع طبية. يمكن أن نتزوج ..

ــ توجد موانع شرعية. إنها من ديانة مختلفة ..

ــ ديننا لا يمنع الزواج من الكتابية ..

ــ وأهلها .. هل يوافقون؟

ــ ترحيبهم بعلاقتنا يؤكد موافقتهم ..

ــ رحبوا بالصداقة لا بالزواج ..

ــ الخواجة أندريا متعصب للأرمن، لكنه متسامح فى الدين ..

قال فى نبرة حاسمة:

ــ قراءة قصص الحب فى الروايات شيء، ومحاولة تقمص شخصيات تلك القصص شيء آخر.

ـ ١٥ ـ

قال العجوز:

ــ لا تخرجي من بيتك هذه الأيام ..

ــ لماذا؟

ــ المظاهرات ..

وهز إصبعه:

ــ لا تخرجي .. ولا تأتي إلى العيادة ..

حذرها من أوامر الضرب فى المليان. المليان هو أجساد المتظـــاهرين. طلقات الرصاص تندفع من كل مكان، تتجه إلى غير مكان. حتى الفـــرار يبدو مستحيلاً. إن لم تخافي على نفسك، فاشفقي على أبويك.

قالت فى لهجة مهونة:

ــ الأمر ليس بهذه الخطورة ..

ــ قد يتفجر الوضع بأشد مما نتصوره ..

وفاجأني بالقول:

ــ اصحبها إلى محطة الترام ..

ملنا ناحية البحر ..

آثار تحطيم وتكسير متناثرة فى شارع إسماعيل صبري. قهوة فاروق خالية من الرواد، ومعظم الأبواب مغلقة، والكراسي تكومت فوق الطاولات. سحب بيضاء، صغيرة، تتناثر فى السماء، ومن وراء الكورنيش الحجري تترامى أصوات التكسرات المستمرة لمد الموج على المصدات الأسمنتية.

قالت نورا:

ــ حتى أبي طلب أن أظل فى البيت، ولا أذهب إلى الكلية.

ولوت شفتها السفلى:

ــ ولا حتى إلى مكتب أبي ..

استطردت لنظرتي المتسائلة:

ــ أتردد عليه ساعتين كل صباح لمساعدته فى إنجاز الأوراق المهمة.

قلت:

ــ ما شأن ذلك بما يحدث؟

ــ امتدت المظاهرات إلى كل مكان ..

ــ أتصور أنه ليس ملجأ ذهابك إلى الكلية أو المكتب ..

ــ صحيح .. لكن أوامر المنع تثيرني!

ــ ١٦ ــ

استعدت العبارة:

ــ مات النقراشي؟

جاء صوت فيصل مصيلحي على التليفون محملاً بالتوتر:

ــ قتله عضو فى الإخوان المسلمين.

ظل متكتماً صلته بجماعة الإخوان المسلمين، لكنني كنت أدرك .. من كلماته وتصرفاته ــ ارتباطه بالجماعة على نحو ما. أطالع الصحف. أكتفي بنظرة تساؤل صامتة إلى عينيه. تومضان بما أحدس أنه يخفيه: قتل القاضي أحمد الخازندار. إلقاء القنابل والمتفجرات على أقسام البوليس في الخليفة والموسكي وباب الشعرية والجمالية ومصر القديمة والأزبكية والسيدة زينب. إلقاء القنابل ــ فى ليلة عيد الميلاد ــ على محال يرتادها جنود الجيش البريطاني. توالى الانفجارات فى ممتلكات اليهود: بنزايون، جاتينيو، شركة الدلتا التجارية، ماركوني، شيكوريل، شركة الإعلانات المصرية، تدمير بيوت فى حارة اليهود، قتل حكمدار القاهرة سليم زكي، إلقاء قنبلة على رجال الأمن بالمدرسة الخديوة ..

فضل فيصل أن نلتقي في قهوة فاروق. مشكلات صغيرة، علينا إنهاؤها قبل أن نلتقي في العلن. روى ــ بكلمات سريعة ــ ظروف قتل النقراشي.

أطلق عليه طالب البيطري عبد المجيد أحمد حسن ثلاث رصاصات، وهو يتهيأ للصعود إلى مكتبه بوزارة الداخلية.

بدا فيصل ميتاً من الخوف وهو يهمس بقرار حل جماعة الإخوان المسلمين وشعبها، إغلاق الأمكنة المخصصة لنشاطها: المصانع والشركات والمعاهد والمستشفيات، ضبط أوراقها، وثائقها، سجلاتها، مطبوعاتها، أموالها، كل الأشياء المملوكة لها. حتى شعبة الإخوان فى البناية المطلة على ميدان أبو العباس، رآه مغلقاً ــ فى وقفته أعلى الدحديرة الخلفية للجامع ــ وأمامه عساكر ..

قلت:

ــ هل ينطبق القرار على الشركة؟

ــ أى شركة؟

ــ شركتنا .. شركتك ..

ــ لا شأن لهم بها. ورثتها عن أبي ..

ونقر جبهته بإصبعه:

ــ فى دولاب حجرة هناء زكريا آلة طباعة بالبالوظة. لابد من وسيلة لإخفائها ..

هل كان يمارس فى الشركة نشاطاً سياسياً؟

اعتدت ــ في عودتي إلى البيت على الكورنيش ــ رؤية الضوء المنبعث من خصاص النافذة المغلقة. أحدس بقاءه فى الشركة لإنجاز ما

يتطلب السهر. ربما كان يلتقي بمن لا أعرفهم ــ هل هم أعضاء في الجماعة؟ ــ أو يدير آلة الطباعة فى منشورات يخفيها؟

أدركت أنه تخلى عما ألفته منه: إذا استعصت عليه مشكلة، أو بدت نذرها، لجأ إلى جزيرته الخاصة، يحيطها بأسوار عالية، لا تأذن لأحد برؤية ما بداخلها ..

همست بما يقلقه للدكتور جارو ..

قال:

ــ ما أعرفه أن الاعتقالات شملت الشيوعيين أيضاً ..

وتنحنح ليزيل احتباس صوته:

ــ كل من اختلف مع السعديين أودع المعتقلات!

ورنا ناحيتي بنظرة جانبية:

ــ خذ من صديقك آلة الطباعة التى يخشى ضبطها ..

وأردف فى لهجة مشاركة:

ــ وجودها فى العيادة لن يثير الشكوك ..

قلت فى ذهول:

ــ هل تحتفظ بها هنا؟

ــ قلت إنه صديقك ..

ـــ أخشى أن أعرضك لمتاعب ..

ـــ عين البوليس لن تفطن إلى عيادة طبيب أرمني عجوز ..

ورفع عيناً متسائلة:

ـــ لماذا قتلوا النقراشي؟

قلت:

ـــ اتهمه الإخوان بخيانة قضية فلسطين ..

قال فى نبرته الهادئة:

ـــ قرار الحل منطقي فى ظل تحول الإخوان إلى جماعة عسكرية ..

اعتدل فى جلسته بحيث واجهنى. قال لنظرتي المستغربة:

ـــ ما فعلته لأن صديقك تهدد فى حريته. أرفض ـــ لأسباب تعرفها ـــ نفى أى إنسان ومصادرة رأيه وإلغاء حريته.

توقع أن يرد الإخوان المسلمون على قرار الحل: الضربة مؤلمة، لكنها ليست قاتلة. المئات ـــ مثل صديقك ـــ خارج المعتقلات. هؤلاء لن يسكتوا. لابد أن يردوا. عرف الإخوان التشكيلات المسلحة والعمل السرى واستخدام المتفجرات. لم تعد الكلمات وحدها وسيلتهم إلى التعبير. علينا أن ننتظر مفاجآت ..

عاب على الإخوان المسلمين أنهم أنفقوا الأموال فى شراء السلاح، والتدرب على استخدامه. لكن السلاح ظل في المخازن، حتى بدأ استخدامه

فى عمليات الاغتيال والتفجير. أتشكك فى الدعاوى الدينية منذ استغلت حكومة الأتراك جهل مواطنيها المسلمين بحقيقة دينهم. حرضتهم على قتلنا باعتبارنا كفاراً!

استعدت لقاءاتنا. لم يكن يشير إلى الدين على أى نحو. وحين أتمتم "الله أعظم" بتعالى صوت مؤذن جامع سيدى على تمراز بالأذان "الله أكبر" لم يكن يبدي ملاحظة ما ..

قال:

ـــ موقفي، رأيي، ضد الإخوان المسلمين. لا شأن لذلك [illegible] الديانة. ورثت عقيدتي، ولا شأن لي بها. إجازتي الأسبوعية [illegible] البيت، لا أتردد على الكنيسة. أعامل البشر باعتبارهم كذلك. ما فعله الإخوان المسلمون فى عهد صدقي أثارني. مهادنة صدقي جريمة ارتكبها من ادعوا انتماءهم إلى دين متطور. أثق أن الإسلام دين متطور. إذا كان النقراشي قد أخطأ فى حل الإخوان المسلمين، فإنهم قد أخطأوا بعمليات الاغتيال والتفجير ..

وعلا صوته:

ـــ من يضع يده فى يد الديكتاتور فهو يوافق على أفكاره وتصرفاته!

ثم غير صوته:

ـــ كان فى بالي أني غريب عن هذه المدينة، غريب عن مصر كلها. لا شأن لى بما أراه أو أسمعه. ثم جرني التعاطف مع الفلسطينيين إلى الاهتمام بما يعانونه، ثم اجتذبتني الأحداث فأنا -كما ترى- أنشغل بها..

استطرد فى ابتسامة متكلفة:

ــ التقاط طرف الخيط جر البكرة كلها ..

***

كانت مفاتيح الشركة معي. أذهب إلى الشركة فى كل صباح. أتوقع ضباط المباحث ــ أمام الباب، أو في الداخل ــ والإغلاق، والشمع الأحمر، والحراسة، وبطاقتك الشخصية، والسؤال: من تريد؟

ألغت الحكومة قرار حل جماعة الإخوان المسلمين. تشجع فيصل ــ بغياب ما يقلق ــ فعاد إلى الشركة ..

ــ الحمد لله أني لست واحداً من الآلاف الذين أودعوا المعتقلات.

قلت فى نبرة لوم:

ــ لم تبلغني بعضويتك فيها ..

تردد فى الإجابة، ثم قال:

ــ ربما لأن الموضوع شخصي .

لم أتحدث عن الموضوعات الشخصية التى يقاسمني فيها الرأى: تحقيقات عيسوى أبو الغيط، عيادة الدكتور جارو، علاقتي بنورا ..

اكتفيت بالقول:

ــ الحمد لله!

أطرق إلى الأرض، ثم رفع عينين منداتين:

ــ أسخف الأمور أن تحتفظ فى داخلك بخوف لا تصارح به أحداً!

أردف فى كلمات متباطئة:

ــ الجهاد يتطلب شجاعة .. لا أمتلكها!

ــ حاولت أن ألتقي بك فى صلاة الجمعة بعلي تمراز ..

ــ اكتفيت بالصلاة في البيت ..

ثم وهو يتشاغل بتقليب أوراق فى يديه:

ــ همني أن أبتعد عن الجوامع ..

تكلم عن الحزن الذى تملك مشاعره، وهو يحرق ــ فى دورة المياه ــ كل ما له صلة بالجماعة. أوراق ومطبوعات ــ يرى أنها مهمة ــ ائتمنته الجماعة عليها. حتى خطب الإمام وكتب قيادات الجماعة. حتى الصورة الوحيدة وهو يتابع درساً للإمام البنا. أحزنه مجرد التفكير فى رد السؤال، بعد أن تزول المحنة: أين الأوراق التى لديك؟

لم تمتد إلى المكتب يد التفتيش، ولا الإغلاق. شاب شعوري بالراحة إدراك أن فيصل مصيلحي كان أداة هامشية فى نشاط الجماعة. لم تلحظه عين الدولة، فأهملتها.

— ١٧ —

واصل تقليب جواز السفر، كأنه يتأكد من أنه حصل عليه. غمغم بكلمات غير واضحة ولا مترابطة، وإن عكست الفرحة فى داخله ..

قلت:

ــ هل هذه هى المرة الأولى التى تحصل فيها على وثيقة سفر؟

ــ عندما قدمت إلى مصر اكتفيت بتجديد الإقامة ..

لاحظ دهشتي من أنه استخرج الجواز للمرة الأولى. [illegible] طيلة تلك السنوات؟

حدثنى عن رحلته الوحيدة خارج مصر، بعد ثلاثة أعوام من استقراره بالإسكندرية. سافر إلى الشام ليلتقي بأفراد من رحلة النفى. أعياه النبش بأصابعه فى كومة القش. تحدد الموطن فى الإسكندرية، لا يغادرها.

شرد بنظره إلى نقطة غير مرئية:

ــ لم أفكر فى أني قد أعود إلى أرمينية ..

ثم وهو يدني فنجان القهوة من فمه:

ــ أريد أن أحتسي هذا الفنجان هناك ..

قلت:

ــ هل نسيت المذابح؟

ــ إذا استعدت الماضي فأنا أخلصه من كل الذكريات السيئة!

حدثني عن رسالة من أرمينية. جميل أن أجد ــ بعد هذا العمر ــ من يراسلني. عد إلى الوطن لتقضي فيه ما بقى من حياة ..

يسلمه الشرود إلى الحياة فى أرمينية، إلى البنايات والشوارع الضيقة المغطاة بالأسقف والكاتدرائيات والكنائس وجبال القوقاز، والبحر الأسود وبحر قزوين ونهر أراكس وبحيرة سيفان وجبل أرارات، سقف العالم ..

ـ هو إذن يعرف أني في لحظات النهاية ..

ـ لك طول العمر. أثق أنهم يحنّون إليك مثلما تحنّ إليهم ..

قال:

ـ أفكر فى العودة إلى أرمينية ..

ـ لماذا؟

ـ هذا أفضل ..

ـ كنت ترفض العودة إلى الحكم الشيوعي بعد انضمام أرمينية إلى الاتحاد السوفييتي فى ١٩٢٢.

ورمقته بنظرة مستفهمة:

ـ ما أعرفه أن الأمور لم تتغير ..

ـ ليس صحيحاً. آلاف من المهاجرين عادوا إلى أرمينية فى السنوات الأخيرة ..

ـ لماذا؟

وهو يشيح بيده:

ـ لماذا .. لماذا .. ربما لأن الأوضاع تغيرت ..

ثم فيما يشبه الضيق:

ـ أنا أرمني، ولست سوفييتياً!

كنا نطل ـ من وقفتنا داخل الحجرة ـ على صدام المتظاهرين والجنود. اصطف العساكر على مفارق الطرق. حاصروا المظاهرة، وتقدموا فى اتجاهها. انقضوا بالعصى والسيور الجلدية. اختلطت الهتافات والضربات والبروق والصواعق والبراكين والصرخات الوحشية ..

صرخت نورا بما أخافني. كأنها تواجه الموت ..

لم ألحظ كيف سقط الشاب، لكن العسكري أهمل الأنين والحركات المتشنجة. واصل الضرب بدبشك البندقية حتى هدأت حركة الشاب تماماً، كأنه مات. أدارت نحوي ملامح مستغيثة .. قهرها الخوف، تصورت موت الشاب قد انتقل إليها. احتضنتني. دست رأسها فى صدرى، كأنها تريد أن تدخل جسمي. أحسست صدرها وهو يتنفس فى صدري. مسدت أصابعي شعرها وعنقها وكتفيها وذراعيها. اقتربت شفتاى من شفتيها. تظاهرت بالرفض، وإن بدا القبول فى إغماض عينيها ..

قالت ـ فى صوت مرتعش ـ إنها أحست بتكسر عظامها، والعسكرى ينهال على الشاب بدبشك البندقية ..

تخليت عن قراري فى أن أرجئ مصارحتي بمشاعري قبل أن أتأكد من أنها تبادلني المشاعر نفسها. حلقنا في أفق المينا الشرقية. شيدنا القصور على السحب. سرنا فوق الماء كما المتصوفة. راقصنا عرائس البحر فى الأعماق البعيدة. انتشينا بالسحر والأسطورة. بدت الجنة متاحة فى الدنيا.

سرقتنا اللحظة. لم ألحظ متى تراخت ذراعاهــا، ولا كيــف تغيــرت ملامحها، وغلب الشرود على نظرتها، كأنها لا ترى ما تتجه إليه عيناها..

غلبني شعور بالارتباك:

ــ كنت أظن أنك لا تعنين بفكرة الخطيئة؟

أدركت سخف ما قلت، فتمنيت أن أعتذر ..

أحيا معها بمشاعر موزعة بين العاطفة والرغبة. لا أدرى متــى، ولا كيف تحل اللحظة التى تجتذبني. أحلق معها في سماوات لانهائية الآفــاق، تتناغم فيها أصوات الشفافية والسحر. أشعر ــ فى لحظات تفــاجئني ــ أن ما أطلبه هو جسدها، لا شأن لى بآرائها، ولا رسالتها الجامعية، ولا حتــى بالدكتور جارو والخواجة أندريا. الجسد هو المطلب الذى أتوق لملامســته وعناقه. أركز فى الجسد الذى تخفيه ثيابها. أتصور علاقــة تبــرق فيهــا [illegible] وتشتعل النيران ..

سدلت شعرها بأصابعها، وعدلت الجونلة، وواجهتني بنظرة متسائلة:

ــ هل تظنني مومساً؟

ــ بل أثق أنك محبة ..

ــ لا أحب أن تنظر لى نظرة الذكر إلى الأنثى ..

ــ لكننا كذلك بالفعل ..

مدت يدها تدير خصلة الشعر:

ــ نحن أصدقاء. هذا يكفي!

أخذت حقيبتها القماشية من على الكرسي. طوحت بها فى الهواء. نقلتها من يد إلى الأخرى. ألقت بها على كتفها. همست بالسلام، واتجهت ناحيــة الباب ..

ــ ١٩ ــ

أسرعت فى خطواتي. قفزت درجات السلم. [illegible] مصيلحي بالنبأ الذى نشرته الصحف: حسن البنا قتل فى أثناء خروجه من مبنــى جمعيــة الشبان المسلمين.

اكتفى بالقول وهو يتطلع من الشرفة المطلة على شارع التتويج:

ــ أعرف ..

هل كان يتوقع ما حدث؟

قال:

ــ ما يحيرني أن الأستاذ البنا أصدر بياناً هاجم فيه قاتل النقراشي ..

حدجني بنظرة جانبية:

ــ لماذا دفعوه إذن إلى إصدار البيان ماداموا قرروا قتله ..

قلت:

ــ قتله الإخوان عندما وضعوا حقيبة المتفجرات فــى مبنــى محكمــة الاستئناف ..

وهو يهز رأسه:

— أضعف إبراهيم عبد الهادى الإخوان المسلمين لصالح الوفد.

قلت:

— الحمد لله أنك أفلت من الاعتقال.

— أنا واحد من نصف مليون عضو فى الإخوان ..

وعلا حاجباه فى تساؤل مستغرب:

— من الصعب أن يقتلوا كل هذا العدد!

ثم بصوت خفيض:

— لا تنس أنى استقلت من الإخوان منذ مقتل النقراشى!

أذهلتنى البساطة التى تحدث بها عن استقالته، كأنه لم يكن ذلك العضو الذى يطبع المنشورات، ويحتفظ بها، ويخفى ما يفعل.

كان يتابع حملات الاعتقال، والمصادرات. تتبدل ملامحه بتوالي متابعتنا للأخبار. يحاول كتم ما يعانيه من خوف. يجرى بلسانه على شفتيه — بعفوية — كمن يتذوق العطش. يعلو صوته ليقضي — هذا ما أتصوره — على القلق فى داخله ..

— ٢٠ —

هل اعتبرت اعتزام جارو السفر نهاية لعلاقتنا؟

ترددت على الأماكن التى اعتدنا اللقاء فيها. مكتبة البلدية، مكتبة الجامعة، ميدان محطة الرمل، شاطئ ستانلي، المسافة من الكورنيش بين تمثال الخديو إسماعيل ولسان السلسلة، قلعة قايتباي، ميدان أبو العباس. حتى بائع الصحف على ناصية اجزاخانة جاليتي، سألته عنها ..

قال فى ابتسامة تذكر:

— نعم .. البنت الخوجاية ..

وقلب شفته السفلى:

— لم أرها إلا معك ..

رنا فيصل مصيلحي ناحيتي بنظرة مشفقة:

— يبدو أن علينا تبادل النصائح ..

ثم هز سبابته في وجهي:

— لا تكثر من الحركة هذه الأيام ..

— ماذا تقصد؟

— المظاهرات والمؤتمرات الشعبية. نحن فى حرب، وعين البوليس صاحية، ويده لا ترحم!

***

كان الوقت عصراً ..

لمحت ضلفتي الشرفة المطلة على المينا الشرقية مفتـوحتين. مضـيت نحو البيت بعفوية. ضغطت على الجرس.

ـ نورا ..

كانت تعاني ارتباكاً، والترحيب يغيب عن نظراتها ..

ـ ماذا حدث؟

أدارت وجهها تتفادى نظرتي المتسائلة:

ـ لا شئ ..

سبقتني إلى مقعد الدكتور جارو. أكرهت نفسي على الابتسام، حتـى لا تفطن إلى ما أعانيه ..

ـ تبدين متغيرة ..

وهى تهز الهواء براحتها:

ـ لعله الحر!

تظل ساكتة، ثم تقول:

ـ قد يتأخر الدكتور عن العيادة ..

ـ هذه فرصة لنتبادل الحديث ..

واستطردت:

ـ لم أرك منذ أيام ..

بدا أنها تريد تفويت الملاحظة:

ـ أظن أن جارو لن يأتى اليوم ..

لاحظت نطقها اسمه دون لقب. أردفت:

ـ طلب مني أن أتحدث إليك ..

ـ ماذا تخفين؟ ماذا تخفيان؟

ـ تزوجت الدكتور ليلة أمس ..

ت .. ز .. و .. جـ .. ت ..

متى، وكيف، نشأت العلاقة؟

كنت على ثقة أن نورا والعجوز من عالمين متباعدين، يجهل أحـدهما أفكار الآخر ومشاعره. لم ألحظ عاطفة ما بينها وبين العجـوز: عبـارة، ضحكة، تبدل نبرة الصوت، لمسة الأصابع على ظهر اليـد، همسـة فـى الأذن، إيماءة، ابتسامة ذات مغزى. صمت مفاجئ مرتبـك. أى تصـرف يشي بعاطفة معلنة، أو مستترة. حتى حواراتهما بالأرمنيـة غـاب عنهـا انفعال العاطفة.

قلت وأنا أحاول السيطرة على مشاعري من تأثير المفاجأة:

ـ لماذا لم يحدثني الدكتور جارو بنفسه؟ لماذا لـم يبلغنـى باعتزامه الرحيل؟

قالت:

ـ هو يحبك كما تعلم!

الحب دعوى كاذبة. يختفي المجرم بعد ارتكاب جريمته. أدرك العجوز ما فعل، فلجأ إلى الاختفاء. إن لم يكن هذا هو العداء، فماذا يكون؟

داخلني إحساس أن كل شيء زائف، وغير حقيقي. التفت البنايات بعاصفة من الغبار المصفر، وحلقت الطيور السوداء في أفق المينا الشرقية، وتساقطت حجارة الكورنيش فى قلب البحر، وواصل عفريت الليل سيره دون أن يضيء بعصاه فوانيس الطريق، وتداخلت حلقة الذكر المترامية من علي تمراز بما اختلطت كلماته ومعانيه، وعانت صفارات البواخر فى الميناء الغربية حشرجة مقبضة، وتحول ميدان الخمس فوانيس إلى سرادق للعزاء، وهتفت المظاهرات للظلم، وللشيطان، وتمنيت لو أن الأتراك أفنوا الأرمن عن آخرهم ..

ــ أنت؟!

وفى دهشة:

ــ لكنك ..

ــ أعترف أني أحبك ..

عصتني الكلمات، تتشكل فى فمي، لكننى أعجز عن نطقها:

ــ وأنت برهنت لي على حبك ..

شعرت أن العبارة أفلتت مني دون أن أتدبر المعنى. استطردت:

ــ ووافقت على زواجنا ..

ــ أن أحبك، لا يعني أن أتزوجك ..

وسرت ارتعاشة فى صوتها:

ــ الحب شئ والزواج شئ آخر ..

شردت فى معنى الكلمات، ثم غمغمت كأني أخاطب نفسي:

ــ أنا لا أفهمك ..

ــ الزواج استقرار. أريد أن أستقر في أرمينية ..

استطردت فى ابتسامة متكلفة:

ــ تزوجته ليصحبني إلى أرمينية ..

ــ لا أفهم .. هل زواجك منه شرط للسفر؟

ــ جنسيتي مصرية ..

ثم وهى تضغط على الكلمات:

ــ هذه فرصتي الوحيدة لأرى أرمينية ..

ــ تتخلين عن كل شيء لرؤيتها؟

ــ أذهب للإقامة لا للفرجة!

ــ ألن تستكملي إعداد الماچستير؟

ــ ما أريده الآن أن أسافر إلى أرمينية .

ــ سافري للسياحة .. للفسحة .. وعودي ..

ــ لا أهل للدكتور هناك ..

أضافت في نبرة واثقة:

ــ يريدني أن أكون أهله ..

ــ هذه مشاعر شفقة ..

ـ أطلت التفكير قبل أن أتخذ قراري ..

ـ الرجل أكبر من أبيك ..

ـ أعرف ..

لم يعد لديّ ما أقوله، فسكت. رفضت أن أجتر الكلمات التى لا تعني شيئاً في الأغلب ..

حل صمت، مفعم بالمعاني الحزينة. أحسست أني وحيد في صحراء مترامية الأطراف ..

بدا لى العالم مليئاً بالأسئلة القاسية، وبالألغاز. لماذا لم يحدثني العجوز عن العلاقة بينه وبينها؟ لماذا صمت عن تعلقي بها ـ لابد أنه لاحظه ـ وواصل نسج غزله حتى ألقى طراحته فى وقت لا أعرفه، وفاز بعروس البحر؟ هل حدثته عن مصارحتي بحبي لها؟ هل كان يعتبرني غريماً؟..

شغلني، صرف انتباهى، بمتاعب الشيخوخة، البناية المهددة بالانهيار، اختلاف الرأى بتباعد السن. لم يحاول حتى مجرد الإشارة، فأكف عن إلحاح النظرات، أو أستكين إلى تلاشي التوقع ..

خمنت من نظرته المتأملة، الصامتة، فهمه وموافقته. فارق السن بينه وبينها، بينه وبيني، لم يطرح معنى مغايراً. علاقة الأب بابنته هى التى تصورتها، بين رجل متقدم فى السن وفتاة تصغره بعشرات الأعوام..

انطلق الخيال. توقعت أن يريحني العجوز من عناء المصارحة، ومن العقبات التى ربما تفرضها أسئلة غير متوقعة من أسرة الخواجة أندريا؟

قلت:

ـ هل يعرف الخواجة أندريا؟

ـ هذا شأني ..

في دهشة:

ـ تتزوجين دون أن تستشيرى أسرتك؟ دون أن تخبريها؟

ـ أنا لست فتاة من بحري ..

ضايقتني العبارة، وإن جاوزتها بالقول:

ـ أرجو أن تعيدي مناقشة قرارك ..

ـ ما قررته نفذته بالفعل. تزوجت الدكتور جارو ..

ـ سأتغاضى عن الإهانة لأني أريد أن نفترق صديقين!

تباعدنا بالصمت، وبالنظرات المحدقة في الأرض ..

حاصرتني الأسئلة: لماذا؟ وكيف؟ وهل تسافر مع العجوز بالفعل، فلا تعود؟..

بدت كل الكلمات فاقدة المعنى، وسخيفة، فلا يمكن النطق بها. أضفت صمتها الواجم إلى الجدار الزجاجي بيننا ..

داخلني شعور بأني سأحرم من رؤيتها إلى الأبد. لا أتصور أني أستطيع فراقها. تصحبني إلى باب الشقة. تودعني، ثم تغلق الباب. أظل في ذاكرتها ـ ربما ـ لأعوام، ثم تذوى الملامح، تشحب، تختفي. ما كان كأنه لم يكن. لقاءات العيادة، ذكريات الدكتور جارو، الجلوس على شاطئ

البحر، رفض فيصل مصيلحي، ملاحظات الخواجة أنــدريا، المناقشـــات، المظاهرات، الأسرار الصغيرة، التردد على أمكنـــة المدينـــة: الشـــوارع الخالية، والزحام، واللافتات، والأشجار، والكورنيش، والحدائق، ورائحـــة البحر، وزرقة السماء، ورذاذ الأمواج، وركوب الترام، وباعة النواصـــي، وظلال الشمس على الجدران، وتلاقى الأذان فى المساجد القريبة.

هل تواتيني الجرأة لزيارة أسرتها؟..

هبطت السلالم إلى الباب الخارجي ..

طالعني شارع إسماعيل صبرى بحركته الهادئة. الشـــرفات الحجريـــة ذات المقرنصات والأشكال تمتد بطول الواجهـــة، ضـــوء العصـــر يعلـــو البنايات، فغطت التندات الشرفات المفتوحة. امتزج نداء الجرســـون فـــي المقهى على ناصية الشارع بأذان العصر من مئذنة جـــامع علـــي تمـــراز المجاور ..

عبرت تقاطع الشارع مع شارع فرنسا وشارع رأس التين. على ناصية شارع التتويج عربة حنطور، راح السائق في إغفاءة، فوق كرســـيه، ودس الحصان رأسه في مخلاة التبن. في الناحية المقابلة عربة تين شوكي، ينزع البائع بالسكين أغلفته الشوكية عن الثمار، وعفريت الليل يضـــيء لمبـــات غاز الاستصباح.

مضيت فى اتجاه البحر ..

التفت ــ بتلقائية ــ ناحية شرفة الطابق الأول. كانت نورا تغلق ضلفتى الشرفة. تنبهت ــ بسخونة الشمس ــ إلى أني أطلت الوقفـــة أمـــام قهـــوة

فاروق. يتعالى من داخلها نداءات الجرسون، وأصوات لاعبـــي الطاولـــة والكوتشينة، وطرقعة القشاط على الطاولة، وصوت عبد الوهـــاب يغنـــي للجندول. وثمة ماسح أحذية يرنو ــ بنظرة متوسلة ــ إلى أحذية الجالسين، وهو يضرب على الصندوق بظهر الفرشاة، وقط ــ أســـفل الرصـــيف ــ قوس ظهره في مواجهة نباح كلب ..

البحر حصيرة. ألق الشمس يضوى على مياهه، وثلاثة قوارب متناثرة، ألقى أصحابها طراحاتهم، وانتظروا الصيد. ثمة في الرمال، وبين الأحجار الصغيرة والحصى، جحور للكابوريا، وطحالب، وبقايا أعشاب، وقناديـــل ميتة. سحابات من الطيور الداكنة اللون، تحلق فـــي السمـــــاء، تقتـــرب، تتباعد، تعلو في اتجـــاه الأفق، ثم تعود، ثم تنطلق. تشحب في انطلاقهـــا، حتى تغيب تماماً ..

محمد جبريل – مصر الجديدة – نوفمبر ٢٠٠٤

شكر

من واجبي أن أوجه الشكر إلى الباحث الدكتور **محمد رفعت الإمام** مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بآداب دمنهور، جامعة الإسكندرية، الذى تفضل بتزويدي بالعديد من المراجع التاريخية التى أفدت منها في كتابة هذه الرواية.

مؤلفات محمد جبريل

١ – تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ـــ نفد

٢ – الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ـــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ – مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ـــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ – انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ، ـــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ – إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ – مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ – هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ـــ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ – من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ـــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ – قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ – الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ – قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ – النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ـــ هيئة الكتاب

١٣ – الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ – نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ قصور الثقافة
١٥ – اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال
١٦ – السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر
١٧ – آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر
١٨ – قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ قصور الثقافة
١٩ – زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب
٢٠ – الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ــ ترجمت إلى الإنجليزية ــ الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ هيئة الكتاب
٢١ – حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة
٢٢ – سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب
٢٣ – انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية
٢٤ – أبو العباس ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
٢٥ – ياقوت العرش ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
٢٦ – البوصيرى ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
٢٧ – على تمراز ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
٢٨ – بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩ روايات الهلال
٢٩ – مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة ــ الطبعة الثانية ٢٠٠٠ ــ المجلس الأعلى للثقافة

٣٠ – حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣١ – الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣٢ – حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ ــ هيئة قصور الثقافة
٣٣ – رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ – مكتبة مصر
٣٤ – المينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية
٣٥ – مد الموج ــ تبقيعات نثرية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية
٣٦ – البطل فى الوجدان الشعبى المصرى (دراسة) ٢٠٠٠ – هيئة قصور الثقافة
٣٧ – نجم وحيد فى الأفق (رواية) ٢٠٠١ ــ مكتبة مصر
٣٨ – زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ ــ مكتبة مصر
٣٩ – موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ ــ قصور الثقافة
٤٠ – ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (رواية) ٢٠٠٣ ــ روايات الهلال
٤١ – حكايات الفصول الأربعة (رواية) ٢٠٠٤ ــ دار البستاني للنشر والتوزيع
٤٢ – زوينة (رواية) ٢٠٠٤ ــ الكتاب الفضي